موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية



بيزنطة والحروب الصليبية



أ.د. عبد العزيز رمضان




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

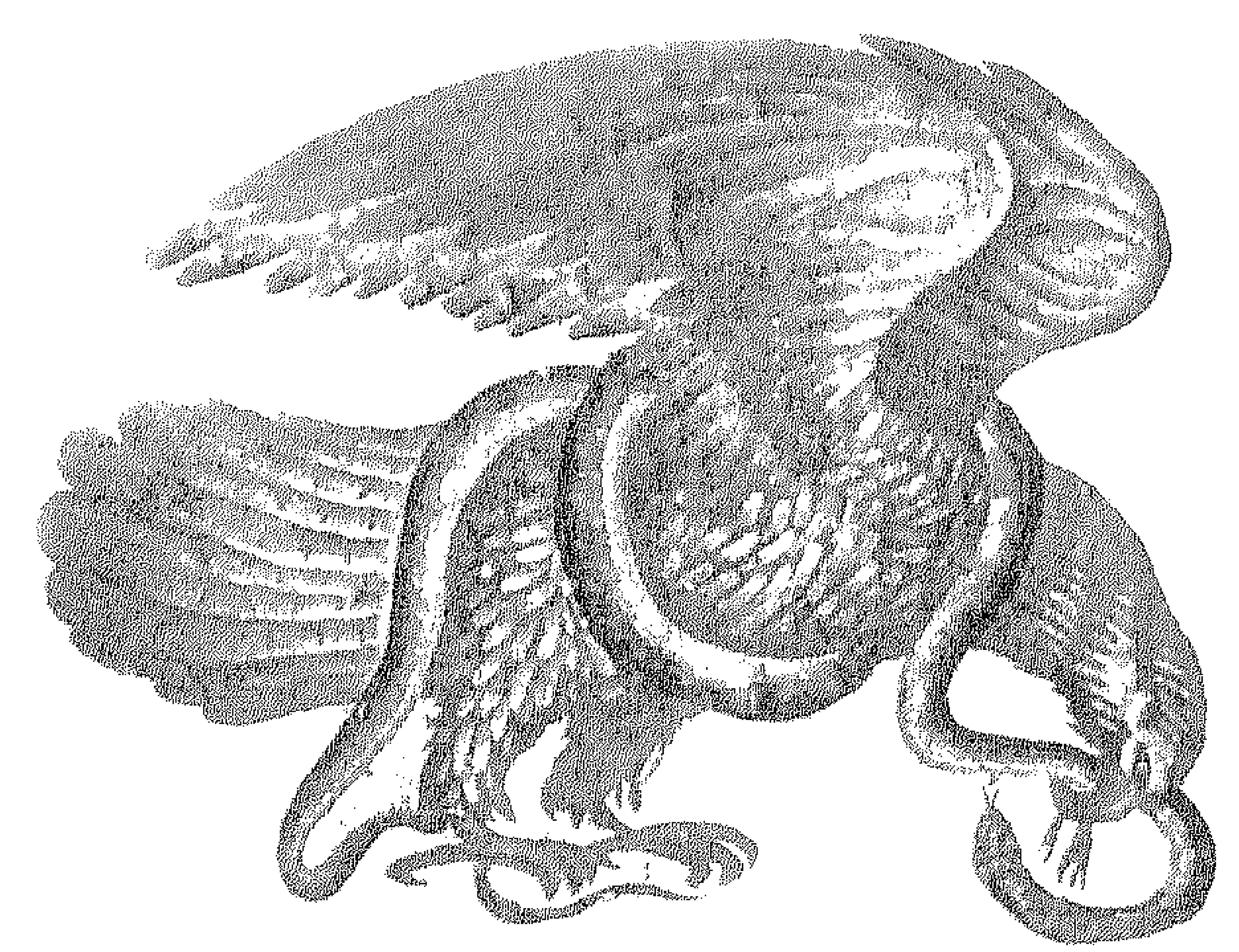
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط

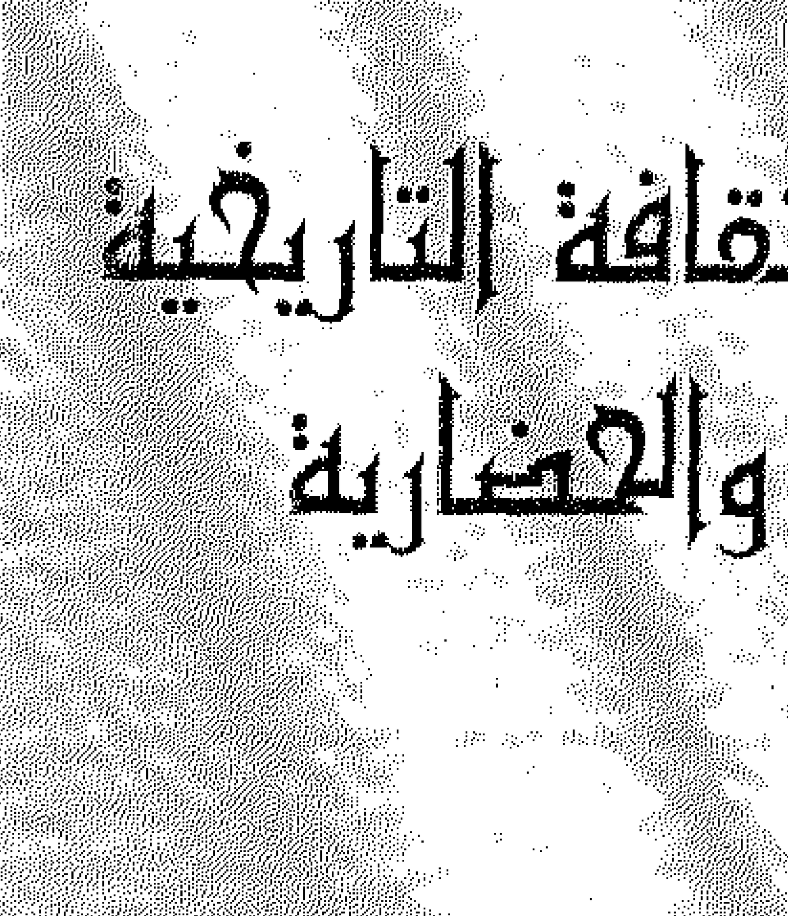
١٤

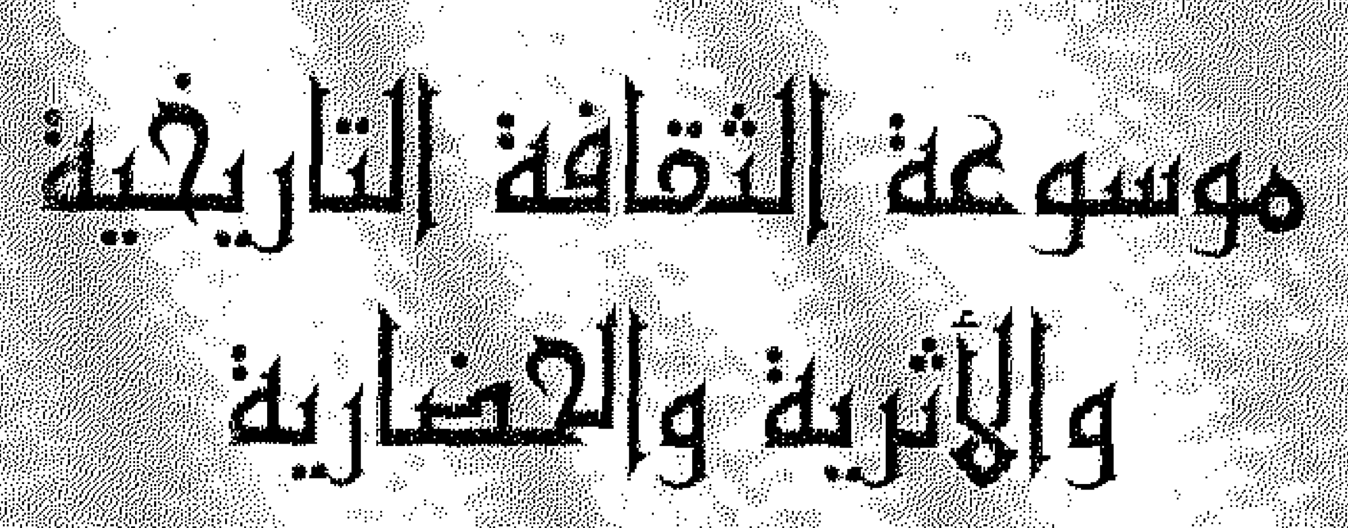
بيزنطة والحروب الصليبية (١٠٨١ - ١٢٠٤م)

تأليف
د. عبد العزيز رمضان
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com





موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٥٦,٠٤٥ عبد العزيز رمضان.
ع ب ب ى بيزنطة والحروب الصليبية/ تأليف عبد العزيز رمضان.
ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨م.
أ-د ٦٨ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٤).
ببليوجرافية: ص ٦٧.
تدمك: ٣- ٢١٢٧ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - بيزنطة والحروب الصليبية. أ- العنوان.
ب- السلسلة .

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٧٢ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

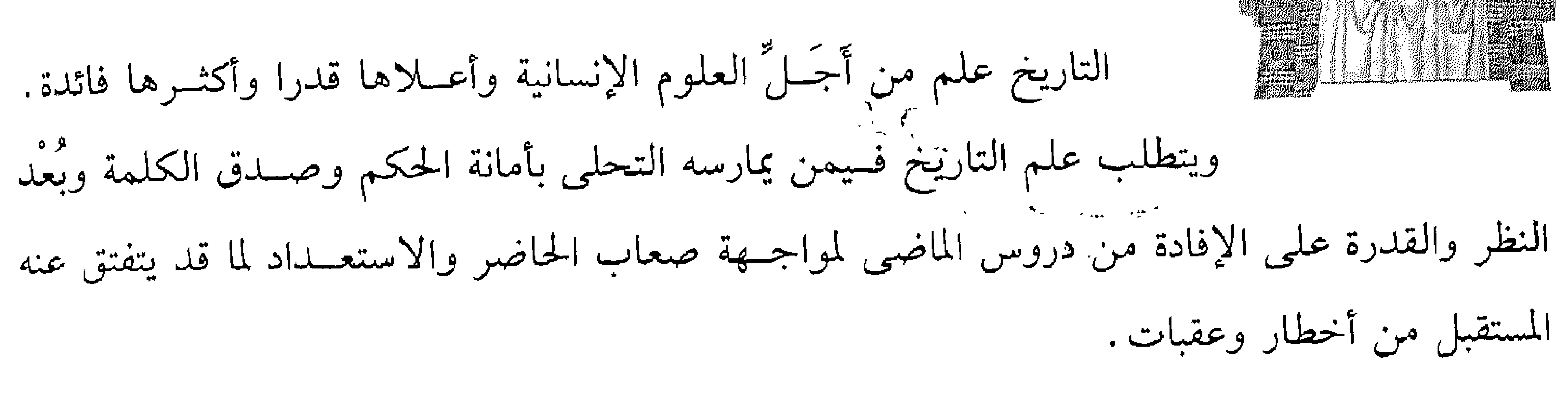
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة.

ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

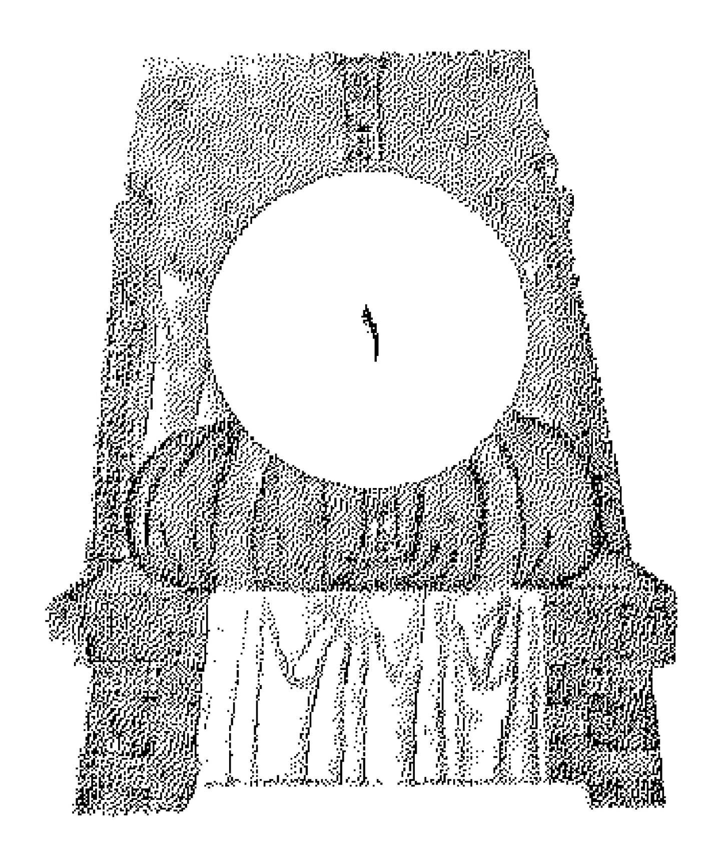
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

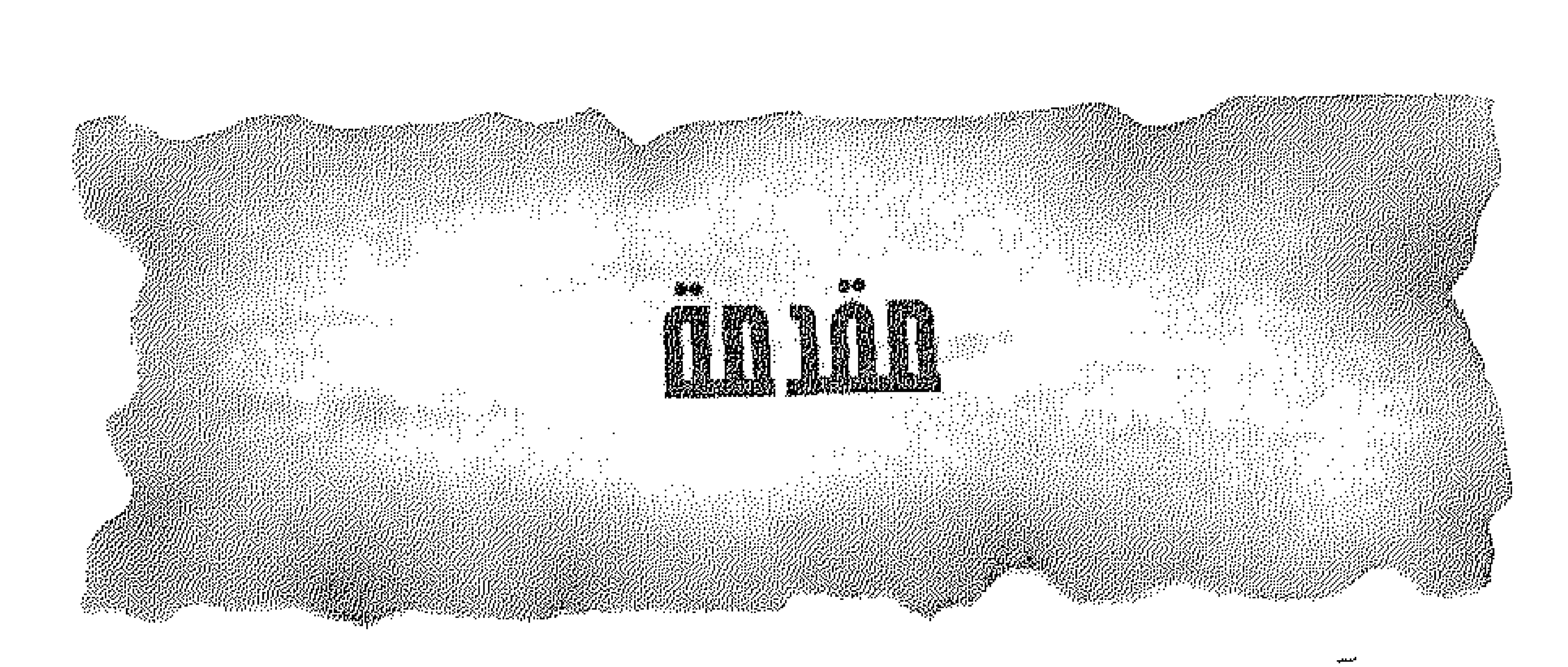
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



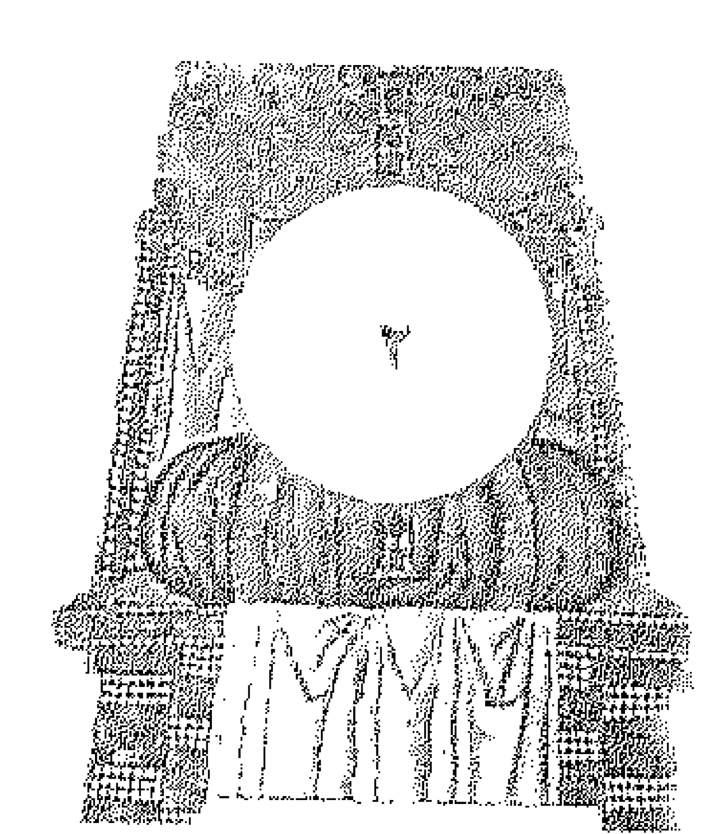


تردد فى الآونة الأخيرة على الصعيد الدولى مصطلح "الحروب الصليبية"، خاصة عندما قدم بابا الفاتيكان اعتذارا إلى مسلمي ومسيحى الشرق الأوسط عن ذلك المشروع الاستعمارى الذى تبناه بعض باباوات القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، ثم عاد واستخدمه الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، مطلقا صفة "الصليبية" على تلك الحرب الشعواء التى انتوى وقتها شنها على ما أسماه "محور الشر" أو "الدول المارقة"، وذلك فى محاولة منه لإضفاء صفة القداسة على هذه الحرب، خاصة بعد أن وضح حديثا أن محور الشر أو الدول المارقة التى استهدفتها هذه الحرب منذ بدايتها هى دول عربية وإسلامية، الأمر الذى أثار وقتها جدلا واسع النطاق على الصعيد الدولى، سياسيا ودينيا.

ولا شك فى أن مفهوم "الحرب المقدسة" لا زال مثار جدل وتساؤلات كثيرة بين باحثى الشرق والغرب، وهذا الجدل ينبع من دلالة وأهمية هذه الحروب، وأثارها على مسرح الأحداث



رحلة الحج لكنائس الشرق -عائلة آل ماريتشى- إيطاليا للرسام جيوتو

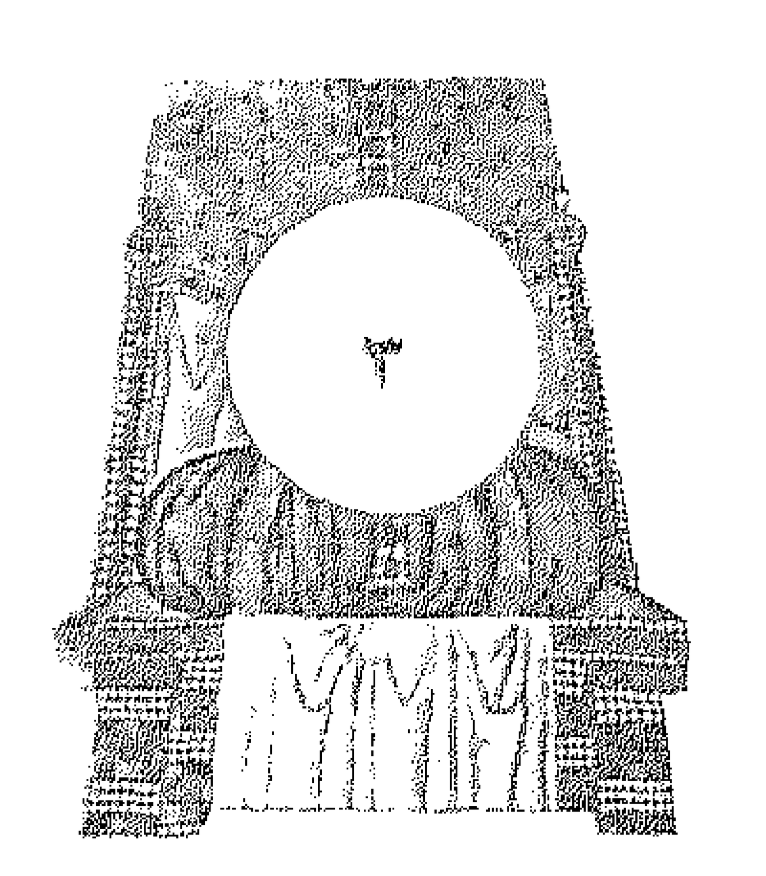


وإعادة تشكيل الخريطة السياسية خلال الفترة الوسيطة من العصور الوسطى، فتاريخ البشرية لم يشهد حربا خرجت تحت ستار الدين مثلما شهد فى هذه الحروب التى دعى إليها منذ بدايتها أكبر رأس دينية فى الغرب الأوروبى الكاثوليكى، البابا أوروبان الثانى، وكان شعارها هو الصليب، وجنودها هم "جنود الرب"، وهدفها هو تخليص قبر المسيح ومقدساته فى فلسطين من سيطرة المسلمين، والزعم بحماية مسيحى الشرق وحجاج الغرب الكاثوليك من اضطهاد الإسلام والمسلمين، وحماية أكبر إمبراطورية مسيحية شرقية، الإمبراطورية البيزنطية، من خطر وتهديد القوة الإسلامية الفتية الصاعدة، الأتراك السلاجقة.

وهذا الكتاب أقدمه اليوم لمثقفى مصر والعالم العربى، واضعا نصب عينى المرحلة الحرجة التى يمر بها عالمنا من استمرار لهذا النوع من الحروب حتى يومنا هذا، كى نعى جميعا الصورة الحقيقية لهذه الحروب، وأنها لم تكن بأى حال مقدسة، ولم يكن جنودها يوما جندا للرب، بل حاولت من خلال موضوع هذا الكتاب إزاحة النقاب عن الوجه الحقيقى لهذه الحرب، وإسقاط قناع القداسة المزيف، ليستطيع القارئ عبر تصفحه له وحتى صفحته الأخيرة أن يتبين الأهداف الحقيقية لهذه الحروب، وأن يقيم طبيعة العلاقة المتناقضة بين الأهداف المعلنة عند بداية انطلاقها، والأهداف المستترة التى لا تمت لها بصلة، والتى أكدتها مجريات الأحداث، وطبيعة تطور العلاقة بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية.

ولا يسع المؤلف إلا أن يتقدم بشكره للأستاذ الدكتور عادل غنيم، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب عين شمس، والقائمين على مؤسسة دار الفكر العربى، على دعوة سيادتهم الكريمة له للمشاركة بهذا الكتاب فى سلسلتهم التاريخية الهامة، والتى تأتى فى وقت بات شباب ومثقفى العالم العربى بحاجة ماسة إلى قراءة التاريخ والتعلم من دروسه.

المؤلف

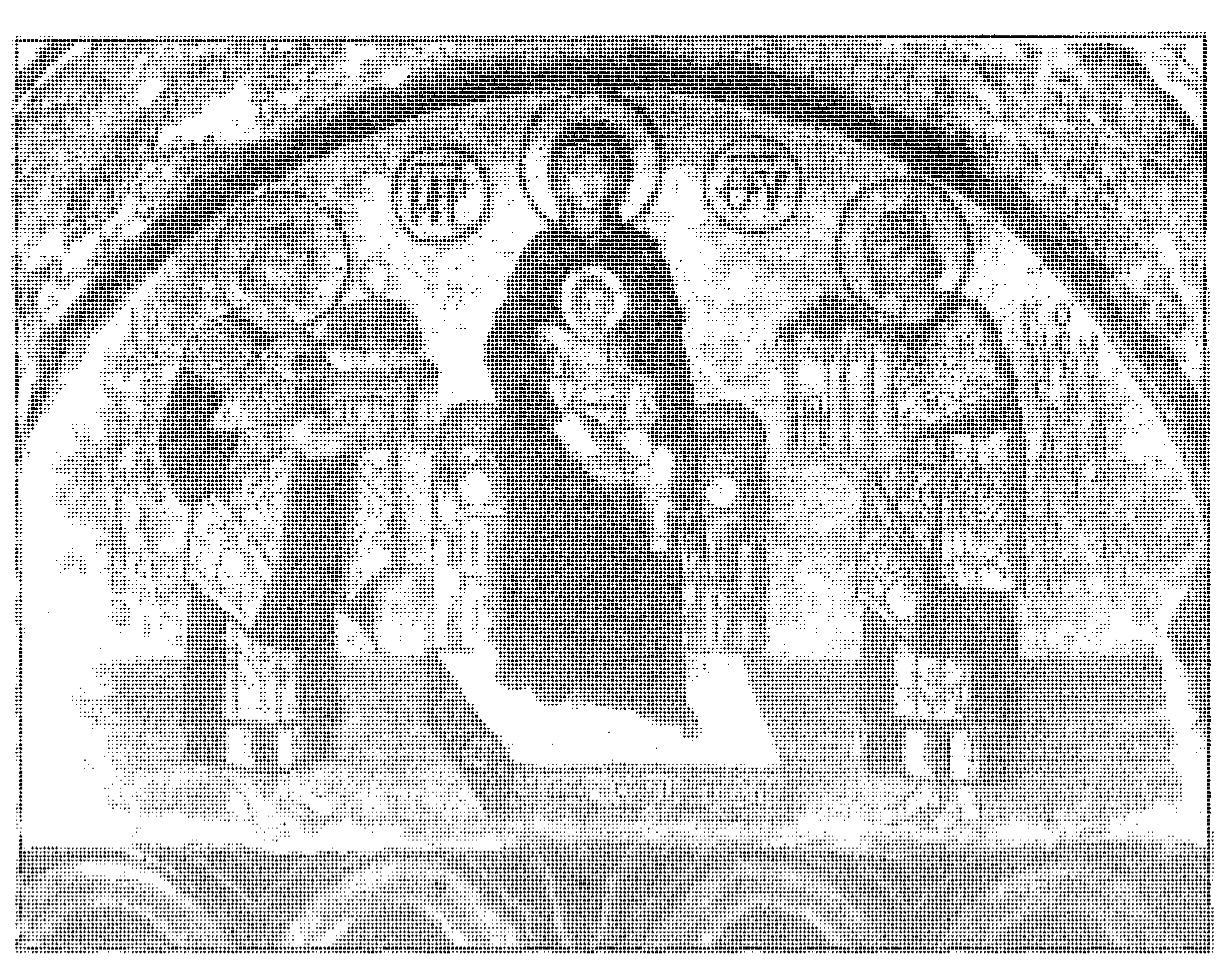


الفصل الأول
بيزنطة والغرب الأوروبى
الخلفيات التاريخية والأيديولوجية

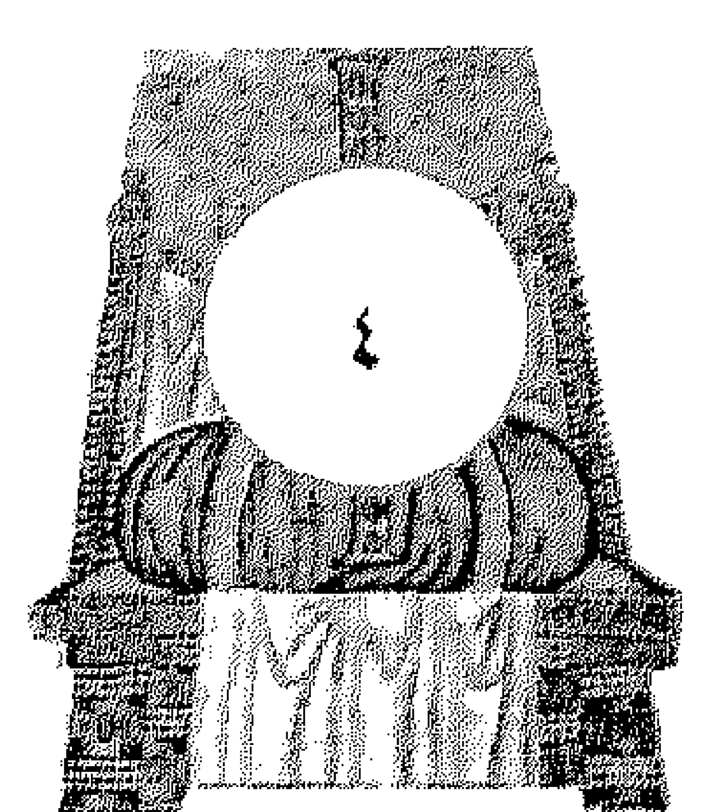
"إن الشهوة إلى تملك الأراضى البيزنطية، والرغبة فى الاستيلاء عليها قد استولت على نفوسهم-أى الفرنجة-منذ زمن بعيد".

بهذه العبارة البالغة الدلالة عبرت أميرة البلاط البيزنطى آنا كومنينا عن هدف حقيقى وأصيل ضمن برنامج أشمل وضعه قادة الحركة الصليبية نصب أعينهم وقتما حملوا شارة الصليب، أو خطوها بلون أحمر دام على عباءتهم وألويتهم، بدعوى قيادة حملة مقدسة، يباركها الرب، ويظللها تأييد السماء لحماية مسيحى الشرق، والدفاع عن الأراضى المقدسة ضد بربرية وهمجية العرب المسلمين، أصحاب السيادة الفعلية عليها، والذين-وفقا لذرائع الصليبيين-يضطهدون حجاج الغرب وهم فى طريقهم إلى كنيسة المسيح، ويريقون دماء مسيحى الشرق ويذيقونهم من صنوف العذاب والإذلال ألوانا.

تلك دعاوى باطلة أثبت التاريخ وكتابه بطلانها، بل إن أقل باحثى الغرب الأوروبى موضوعية ونزاهة اعترف بأن هذه الحروب لم تكن مقدسة فى شىء، ولم تكن تمت للصليب بصلة، بل هى حروب خرجت لأهداف توسعية استعمارية وأغراض دنيوية بعيدة



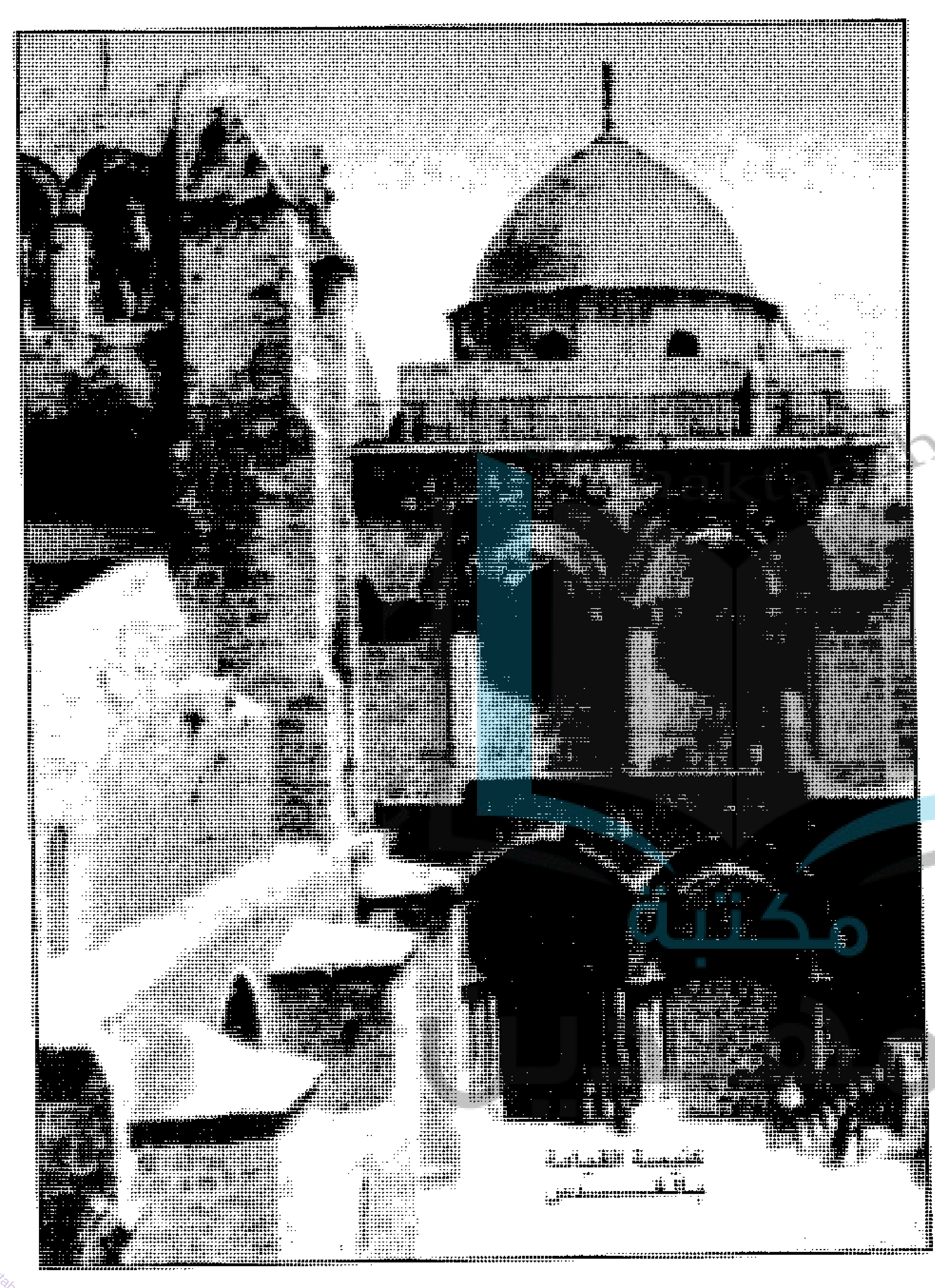
الإمبراطور قسطنطين والإمبراطور جستنيان الكبير - فسيفساء- آيا صوفيا



تمام البعد عن المسيح وصليبه، وأن مسيحية الشرق ومقدساتها لم تكن سالمة أو آمنة على نفسها إلا فى ظل الحكم الإسلامى، وأنها لم تعرف الاضطهاد والإذلال إلا عندما دنست أقدام صليبى الغرب تلك الأرض المقدسة.

إن الحقيقة التاريخية ومجريات الأحداث لتثبت بما لا يدع مجالا لأدنى شك فى أن البشرية لم تشهد حروبا استعمارية خرجت زيفا وبهتانا بدعاوى الدين والقداسة والصليب، مثلما شهدت خلال الفترة الممتدة منذ أواخر القرن الحادى عشر وطوال قرنين تاليين، إنها حرب عنصرية خرجت ضد الإسلام والمسلمين، بل وضد المسيحية الشرقية ومعتنقيها، فنتيجتها ومحصلتها الأليمة لم تشمل فقط المسلمين وأراضيهم المقدسة، بل راح ضحيتها أيضا إخوة لهم شاركوهم الدين، ذلك عندما عبر الصليبيون عن دمويتهم وعنصريتهم فى أجل صورها وقتما وجهوا حربهم الصليبية إلى الإمبراطورية الشرقية المسيحية، بيزنطة، تلك الإمبراطورية التى أبت-عبر تاريخها الطويل الممتد لأكثر من أحد عشر قرنا من الزمان إلا الصمود فى وجه أعدائها الكثيرين الذين أحاطوا بها من كل جانب، وكان من بينهم المسلمين أنفسهم، حصدت عنصرية الغرب الأوروبى فى أواخر القرن الثانى عشر، وتحديدا عام ١٢٠٤م، فيما عرف اصطلاحا بالحملة الصليبية الرابعة، لتسقط سقطتها الأولى، وربما الأخيرة، بيد مسيحية وسهام صليبية.

والآن، علينا أن نبدأ قصتنا منذ بدايتها لنتعرف على الأسباب الحقيقية التى وجهت مسار الأحداث هذه الوجهة المثيرة للدهشة، ولنرجع بالزمن إلى الوراء كثيرا، وتحديدا عند أواخر القرن الرابع الميلادى، عندما قدرت مجريات الأحداث إلى انفصال



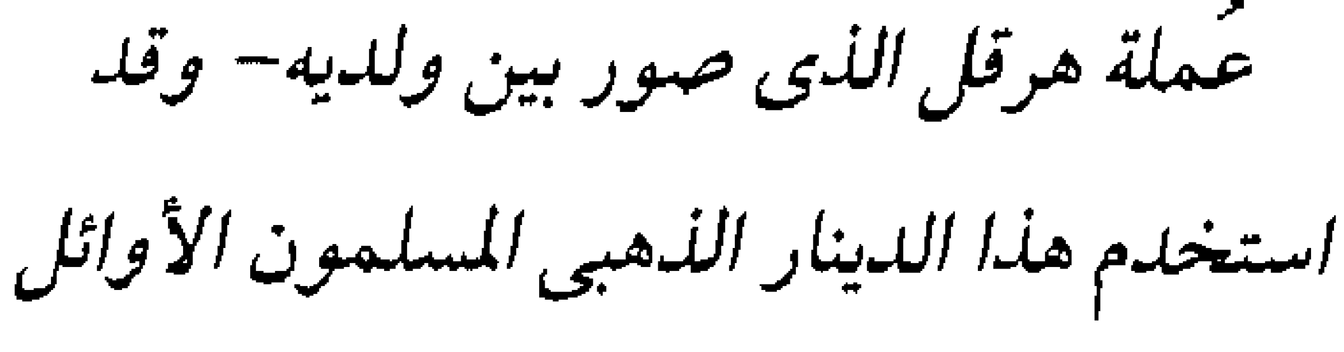
كنيسة القيامة فى بيت المقدس



الإمبراطور جستيان الثانى الذى أعاد لبيزنطة هيبتها– كنيسة سان فيتال– رافينا

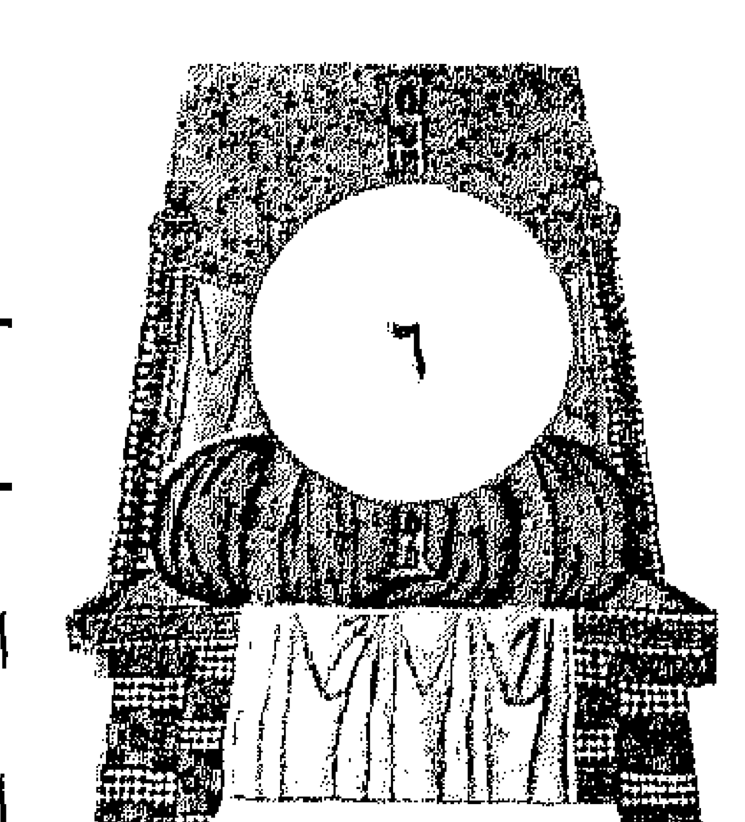
شطرى الإمبراطورية الرومانية القديمة، الشرقى والغربى، وضياع الغرب الأوروبى تحت أقدام جحافل القبائل الجرمانية المتبربرة، أسلاف شعوب أوروبا الحالية، وانتقال مركز الثقل الإمبراطورى بعاصمتها ومجلس شيوخها وجيوشها من على ضفاف نهر التيبر حيث مدينة روما عاصمة الإمبراطورية فى عصور مجدها الغابرة، إلى شواطئ مضيق البسفور حيثما توجد القسطنطينية- استنبول حاليا-تلك المدينة التى شيدها الإمبراطور البيزنطى قسطنطين لتكون مقرا جديدا لإمبراطورية الرومان الأقدمين، وراح يطلق عليها "روما الجديدة Nova Roma" وليس "روما الثانية"، فروما القديمة قد ولت وسارت فى غياهب النسيان بعد أن قطنتها عناصر لا تمت للرومانية بصلة، أما الجديدة فقد جاءت لتتبوأ مكانتها، ولتغدو حاضرة "الإمبراطورية الرومانية الشرقية" أو "الإمبراطورية الرومانية المتأخرة"، وليصبح مواطنوها هم "الرومان الجدد" وورثة أمجاد إمبراطورية "الرومان الأقدمين".





عُملة هرقل الذى صور بين ولديه– وقد استخدم هذا الدينار الذهبى المسلمون الأوائل

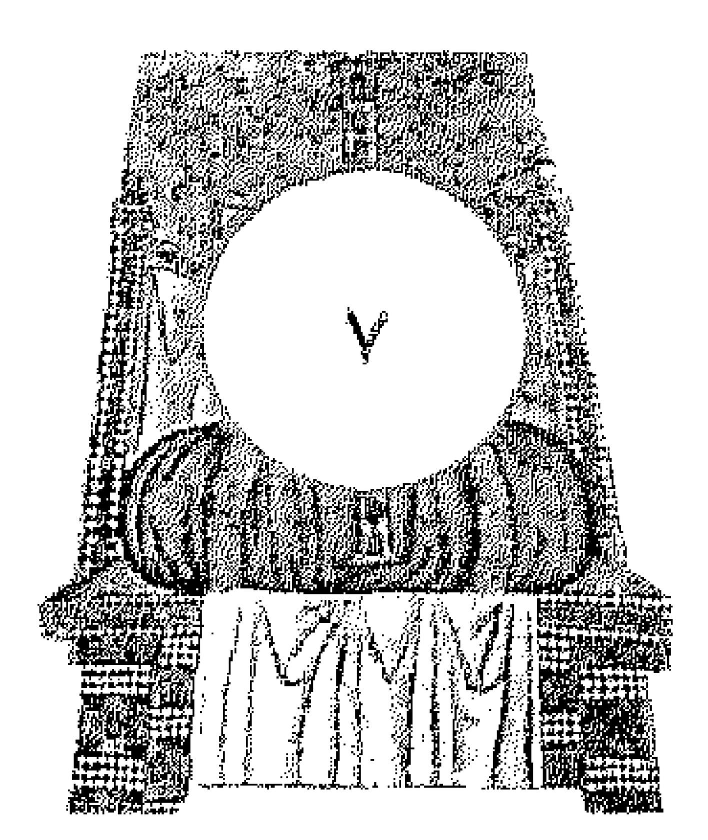
وإذا كان الشرق البيزنطى "الرومانى" قد تباعد سياسيا عن الغرب الأوروبى "الجرمانى"، فإن اعتناق الجرمان الديانة المسيحية على المذهب الأريوسى "الكاثوليكى"، قاد بيزنطة "الأرثوذكسية" إلى طريق مختلف تماما عن ذلك الذى سلكه الغرب، أضيف التباعد الدينى إلى السياسى ليسهم فى تعميق الاختلاف الأيديولوجى بين شطرى الإمبراطورية الرومانية القديمة.



وعلى المستوى الحضارى، نجد أن الإمبراطورية البيزنطية ككيان حضارى نشأت على أرض يونانية ذات حضارة هللينية لها سمات وخصائص خاصة تختلف عن نظيرتها الرومانية، وفى هذا النصف الشرقى الواسع من الإمبراطورية كانت اليونانية هى لغة الحديث والثقافة، ومع انتقال مركز الإمبراطورية الرومانية من الغرب إلى الشرق، انتقلت معها اللغة اللاتينية كلغة رسمية للإدارة المركزية والجيش والقانون، وكان الشرقى الذى يريد المشاركة فى هذه المجالات مضطرا إلى تعلم اللاتينية، وربما أضطر فى الغالب إلى تبنى الثقافة اللاتينية، وعلى الجانب الآخر ظلت اليونانية لغة الحياة اليومية والتعليم والثقافة.

ومع تأسيس الممالك الجرمانية فى الغرب الإمبراطورى، فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ذاتها، فقدت الإمبراطورية فى القرن الخامس معظم العالم المتحدث اللغة اللاتينية، ومنذ ذلك الحين ظهر فى القسطنطينية خطان سياسيان، أحدهما "رومانى" هدفه استرداد الغرب وإحياء الإمبراطورية العالمية بتقاليدها الرومانية القوية، وتجسد هذا الاتجاه بوضوح فى سياسة الإمبراطور جستنيان الاستردادية، والآخر "بيزنطى" انصرف عن استرداد الغرب الإمبراطورى كأمر غير قابل التطبيق عمليا، وركز على ترسيخ أقدام الإمبراطورية فى الشرق اليونانى، وتأسيس قاعدة قوية قادرة على المواجهة المؤثرة أمام الخطر الفارسى، وفيما بعد أمام الخطر العربى الإسلامى، وخير مجسد لهذا الاتجاه الإمبراطور هرقل فى القرن السابع.

وبعد فشل الإمبراطور جستنيان فى محاولته الاستردادية للغرب الإمبراطورى، والغزو اللومباردى لإيطاليا لم يعد إعادة تأسيس القوة الرومانية فى الغرب هدفا أوليا لأية حكومة بيزنطية، بل يمكن القول بأنه مع وفاة جستنيان بدأت العناصر الرومانية فى المجتمع البيزنطى تفقد ما كان لها من أهمية بصورة سريعة، وما إن جاء هرقل حتى أجهز على ما تبقى منها، خاصة عندما تخلى عن اللقب الإمبراطورى الرومانى التقليدى، وبدأ يلقب نفسه فى الوثائق الرسمية باللقب المجرد "إمبراطور Βασιλευς"، وأعاد الهيكلة الإدارية للإمبراطورية بما يتناسب مع الأوضاع السياسية والاقتصادية والإدارية الجديدة ، فأخرج نظاما بيزنطيا خلا أو كاد من أى أثر للنظام التقليدى القديم، وكما يقول الباحث روبرت بروننج Robert Browning "لم يتبق فى القرن السابع من الميراث الرومانى سوى القانون الرومانى، الذى أصبح يدرس فى ترجمات وتنقيحات يونانية، والتصور المبهم لأصل السلطة الإمبراطورية فى السناتو والشعب والجيش، والتى لم يكن أحد يتذكره إلا عندما يكون اعتلاء العرش غير مرتب قبلا، والشعور بالتفوق الموروث على المجتمعات والجماعات السياسية الأخرى، وأخيرا اسم "رومانى Ρωμαιος".

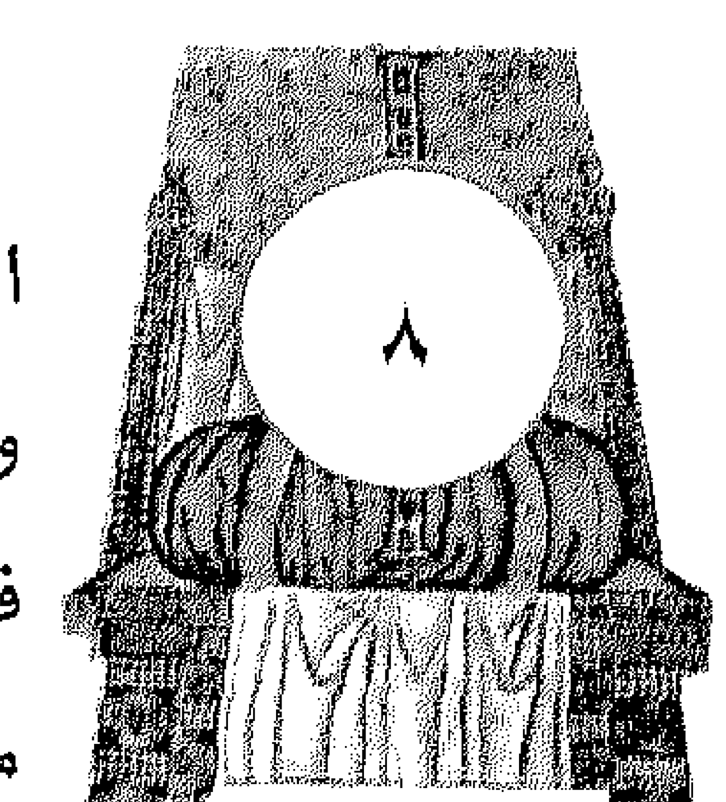


ورغم أن كثيرا من العناصر الرومانية بدأت تفقد أهميتها فى بيزنطة منذ القرن السابع، إلا أن نظرية العالمية الرومانية ظلت تمثل أساس الهوية السياسية للإمبراطورية البيزنطية ومواطنيها، وظل اسم "الرومان" مستخدما على مدار تاريخ الإمبراطورية من البيزنطيين أنفسهم كمصطلح يدل على هويتهم، والمتصفح للنصوص والمصادر يلاحظ من الوهلة الأولى أنه لا تكاد توجد صفحة واحدة تخلو من هذا الاسم إشارة للبيزنطيين، ومن الملاحظ أن استخدام هذا الاسم اقترن دائما بأيديولوجية البيزنطيين السياسية فى مواجهة الغرب الأوروبى، أو بعبارة أخرى كمحاولة لمواجهة ادعاءات حكام الغرب فى كونهم ورثة الإمبراطورية الرومانية، وبأنهم الوحيدون أصحاب الحق فى العرش والتاج وبالتالى فى السلطة الرومانية العالمية.



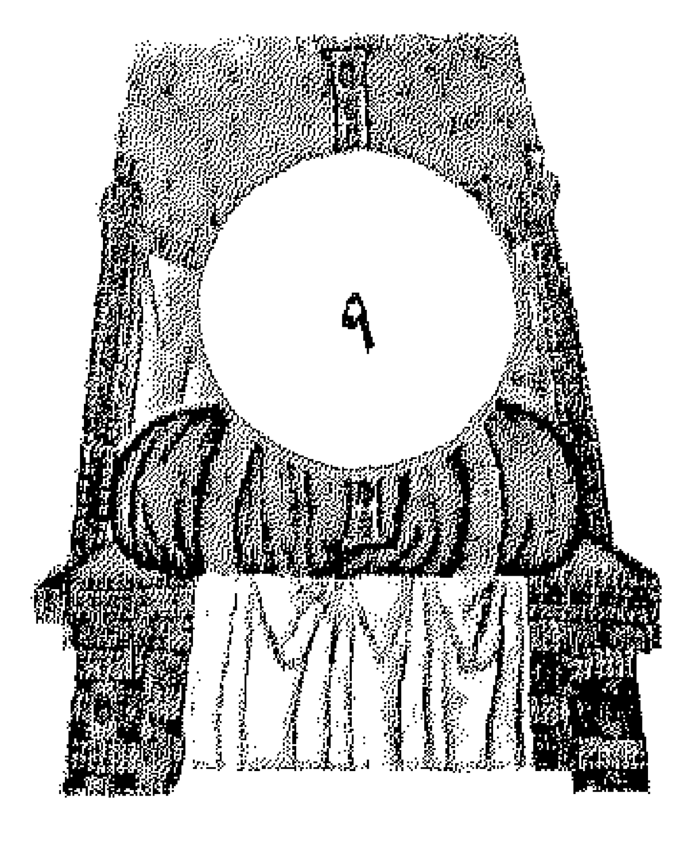
الإمبراطور شارلمان على جواده أثناء فتوحاته فى أوروبا

وقد تلقت النظرية السياسية البيزنطية أول ضربة خطيرة فى عام ٨٠٠م، عندما توج الملك الفرنجى شارلمان إمبراطورا على يد البابا ليو الثالث، وإذا كان هذا الحدث يحمل مغزى خاصا للغرب يكمن فى تدشين تولى أوروبا للسلطة كمفهوم سياسى، إلا أنه شكل للبيزنطيين تهديدا مباشرا لهويتهم السياسية، وتحديا سافرا لمفهوم الإمبراطور الواحد الذى يحكم إمبراطورية عالمية، ورغم أن المشكلة تمت تسويتها بصورة جزئية، إلا أن الأباطرة البيزنطيين الذين ظلوا حتى ذلك الحين يصفون أنفسهم باللقب المجرد "إمبراطور Βασιλευς"، نادرا ما فوتوا فرصة بعد عام ٨١٢م إلا واستخدموا لقبهم الكامل "إمبراطور الرومان".



وتوالت الضربات للنظرية السياسية البيزنطية من حكام الغرب الأوروبى، بداية بتتويج أوتو الكبير Otto the Great على يد البابوية، وإحيائه الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، انتهاء بإضفاء الملك الألمانى فردريك بربروسا صفة القداسة على هذه الإمبراطورية، بحيث أصبحت منذ منتصف القرن الثانى عشر تحمل اسم"الإمبراطورية الرومانية المقدسة"، وقد استفزت هذه الأحداث مشاعر البيزنطيين، خاصة حكامهم والمؤرخين المعبرين عنهم، فكان لزاما عليهم الدفاع عن رومانيتهم فى مواجهة الغرب الأوروبى، الذى لم يترك هو الاخر أية فرصة إلا ولقب الإمبراطور الجالس على عرش القسطنطينية بلقب "ملك أو إمبراطور اليونانيين"، ومن ثم شهدت المصادر البيزنطية خلال الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والثانى عشر الميلاديين ظهور قصة" الإمبراطورية المنقولة Trans-latio Imperii "على صفحاتها كأساس وبرهان لإثبات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية. ففى القرن العاشر انفجر الإمبراطور البيزنطى نقفور فوقاس غضباً فى وجه الوفد الذى حمل إليه رسالة البابا يوحنا الثالث عشر، والذى خاطبه فيها بوصفه إمبراطور اليونان، قائلاً: "أو لم يدرك ذلك الأب الأحمق أن القديس قسطنطين قد نقل إلى مدينتنا-يقصد القسطنطينية- مقاليد السلطة الإمبراطورية ومعها السناتو والجيش الرومانى ولم يترك فى روما غير العبيد وأبناء الزنا؟! "، وفى أوائل القرن الثانى عشر، راحت الأميرة آنا كومنينا تعبر عن نفس المفهوم فى ذهن أبيها الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس، معلنة أن السلطة الإمبراطورية مع السناتو والإدارة

القصر الإمبراطورى فى البلاط البيزنطى

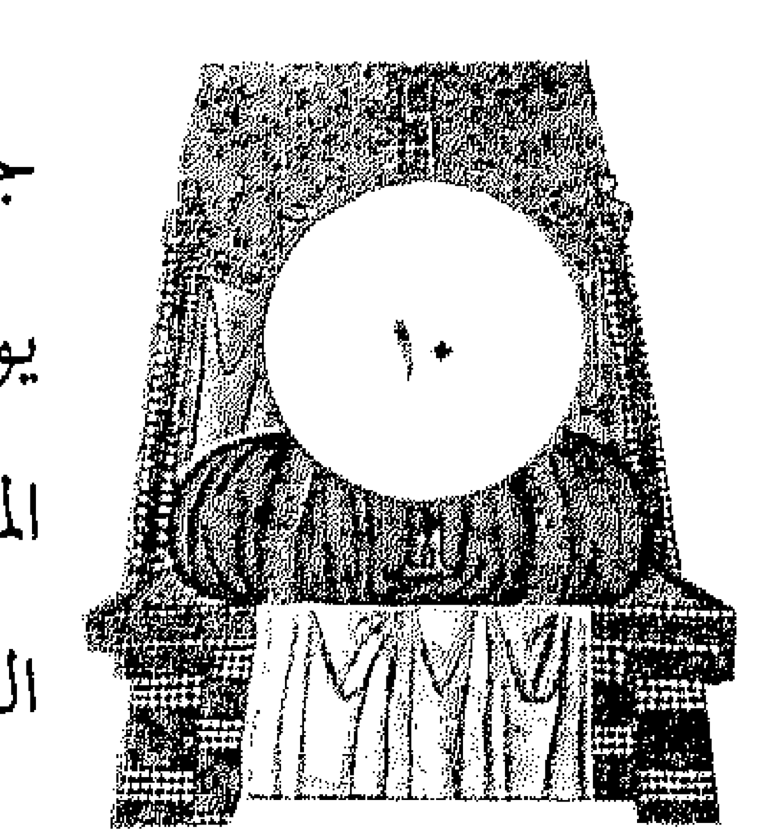


الرومانيـة بأكملهـا قد انتقلوا مـنذ وقت بعيد من رومـا القديمـة، إلى روما الجديدة.

وقد بلغ الصراع البـيزنطى-الغربى على وراثة الإمبـراطورية الرومانية سياسيا ذروته فى عصر الإمـبراطور البيزنطى مانويل الأول كومنينوس، الذى لم يكن ليفرط فى العقائد السياسية التى ورثها عن أسلافه، وخاصة وأنه كان يدرك تماماً أنه أمام خصم عنيـد، غاية طموحه أن يصبح إمبراطوراً رومانيـاً، فعلاً وقولاً، بل كان عليه أن يدافع عن منصبه الإمبراطورى فى مواجـهة ادعاءات الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا التى باتت تهدد أمن وسلامة إمبراطوريته، ويبـدو أن مؤرخه وسكرتيره الخاص كيناموس Kinna-mos كان بوقـاً له فى الإعلان عن حـقه فى كونه الإمـبراطور الرومـانى الشرعى، فـفى الكتاب الخامس راح كيناموس يناقش حملة بيـزنطة ضد المجر فى عام ١١٦٢م، وأشار إلى أن ملك المجر تلقى مساعدات من حاكم بوهيـميا فلاديسلاف الثانى Vladislav II الذى تلقى منصبه الملكى من بربروسا، وعند هذه النقطة ينفجـر كيناموس فى ثورة غاضبة لمهاجمـة ادعاءات بربروسا الزائفة فى صورة عبر عنها الباحث ألكسندر بقوله: "غير معهودة فى الكتابات التاريخية البيزنطية".

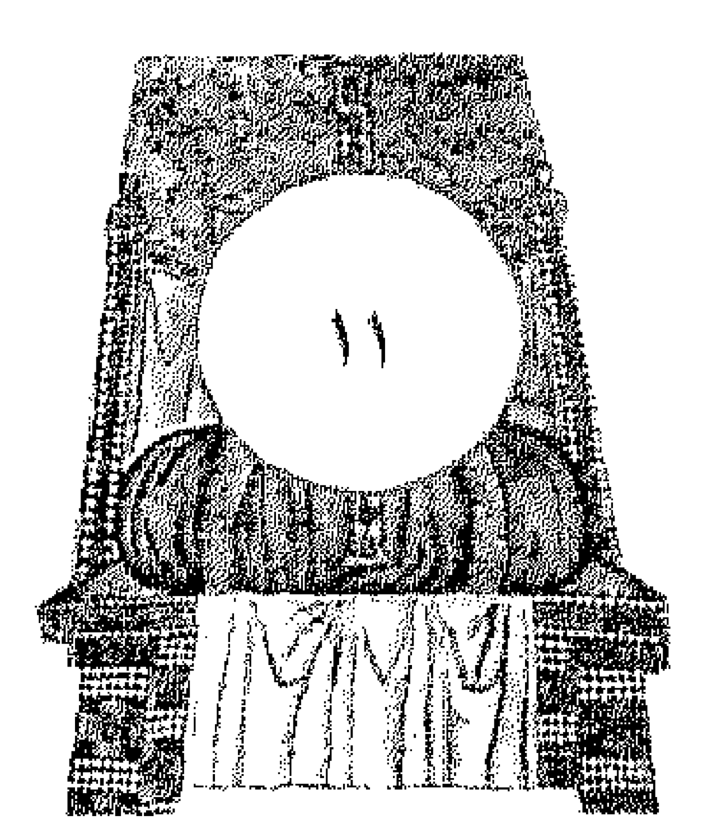
لقد راح كينامـوس يعلن أن منح اللقب الملكى لدوق بوهيميا على يد حاكم الهـوهنشتاوفن أمر لا أسـاس له من الشرعـية، ومنذ السطر الأول للخطبـة المسهبـة التى خطها ليـدحض مزاعم الإمبراطور الألمانى، راح يؤكد على أنه بعد عام ٤٧٦م لم يعد هناك سوى إمبراطور شرعى واحد، عاصمـته القسطنطينية وليـست روما التى يحكمها-منذ وقت رومولـوس أوغسطولوس آخر أباطرة الغرب الرومانى وحتى زمنه-برابرة متمردون، ومن ثـم فإن الشخص الوحيد القادر على منح مثل هذه الألقاب الملكـية هو الإمبـراطور الجالس على عرش الـقسطنطينية؛ لأن هذه الألـقاب تستـمد فاعليتها من سلطته الإمبراطورية.

وعلى هذا النحو، يقدم لنا كـيناموس مقدمة أراد بها إثبـات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية، وكـمدخل لهدفه الرئيسى وهو السخرية من مغـتصبى اللقب الإمبراطورى فى الغرب، وهو بذلك يعـبر-دون شك-عن وجهة نظر سـيده الإمبراطور التى ورثهـا عن أسلافه وتشربها بكـل قوة، فيستطرد قـائلاً: "ولـم يكتف حكام الغرب بالاعتداء الوقح على هـيبة المنصب الإمبراطورى عندما ادعـوا لأنفسهم الحق فى السلطة الإمبراطورية، بل كان لـديهم من الوقاحة ما جعلهم يزعـمون بأن الإمبــراطورية فى بيزنطة تخـتلف عن تلك التى مقـرها رومـا، الأمر الذى



جعلنى مـدفوعاً للغثـيان عدة مرات" ، ولم يكتف كـيناموس بذلك بل راح يواصل حـديثه برثاء مـتشـرب بروح السخـرية والتهكم من تلـك الأحداث المخزية التى تجـرى فى روما، متـسائلاً: "أى رجل هذا الذى يدعى لنفـسه الشرف الإمبراطورى، ثم يحط من قدره بالعدو أمام أسقف يمتطى حصاناً، ويعتـرف به سيداً له لقـاء أن يمنحه هذا اللقب الإمبـراطورى، وكأنه بذلك يضعه على قدم وساق مع الإمبراطور الرومانى" .

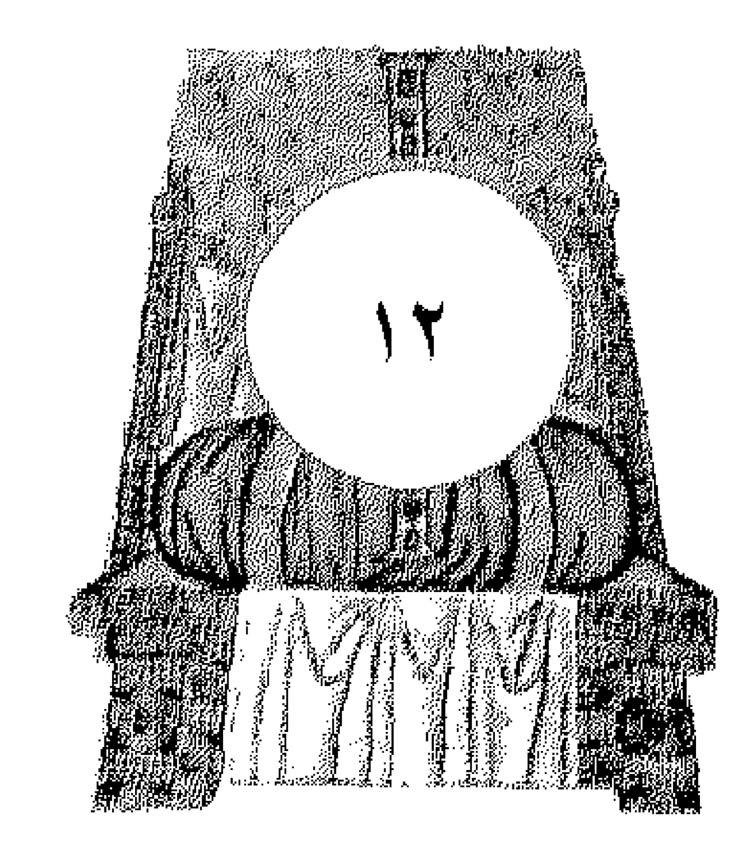
ونستـشف من الحديث الذى جـرى به قلم كينامـوس بأنه كان هناك ثمـة شعور قـوى ساد الدوائر الحاكمـة فى بيزنطة بأن ادعاءات. الملك الألمانى فريدريك بربروسـا باتت تشكل خطراً داهما يهدد حق الإمبراطور البـيزنطى فى السيادة العالمية، ومن هنا نهض كيناموس للـقيام بدور المتحدث الرسمى لتنفيذ هذه الادعاءات الزائفة، وتحذير البـابوية من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على إقرارهـا بهذه الادعاءات، وعند هذه النـقطة كان كينامـوس هو أول بيزنطى يسـتخـدم "هبة قسطنطين" التى تدعـيها البـابوية لإثبات حقهـا فى السيادة والسـمو على السلطة الزمنية، غـير أن اسـتخدام كينـاموس لها كـان مختلفـا كل الاختـلاف، فمن وجهـة نظره أن البابوية إن اعـترفت بادعاءات إمبراطور الغرب فهى بذلك تتنصل من هبة قسطنطيـن، وبالتالى تفقد حقها فى خدمات التبعـية من جانب الإمبراطور، فنجـده يخاطب البابا قائلاً: "أيها البـابا، إذا لم تسلم بأن العرش الإمبـراطورى فى بيزنطة هو ذاته عـرش روما، فـعلى أى أساس حظيت بشرف مـنصبك؟! رجل واحد فقط هو الذى منحك هذا الشرف، هو قسطنـطين، المسيحى الأول من بين جميع الأباطرة، فكيف إذن تتلقى هبة الكرسى البـابوى بسموه الفائق، وفى الوقت نفسه تنكر أن إمـبراطور بيزنطة هو الإمبـراطور الرومانى الشرعى؟! لقد كـان لزاما عليك أن تقبل الأمريـن أو ترفضهمـا معا" ، وتتزايد نبرة كيناموس حدة عندما راح يعلنهـا صراحة، أنه إذا كان للبابا الحق فى أن يبارك الجالس على العرش الإمـبراطورى ويضع يديه على رأسـه، فإن ذلك لا يعنى أن من حقـه، أو حتى فى نطاق سلطته أن يمنح المنصب الإمبراطورى لأن البابا سيلفستر Sylvester نفسه لم يستطع التفوه بحرف واحد عندما نقل قسطنطين العظيم المنصب الإمبـراطورى من روما إلى القسطنطينية، رغماً عنه ، وفى النهاية يختتم كيناموس حديثه إلى البابا قائلاً: "أيها البابا، إذا زعمت بأنك واقع تحت ضغط أو إكـراه من جانب أحد-يقـصد الملك الألمانى-فتلك حـجة واهية، فـلا تكن على شاكلة الانتهازيين الذين يتلونون مع تقلبات الأحوال" .

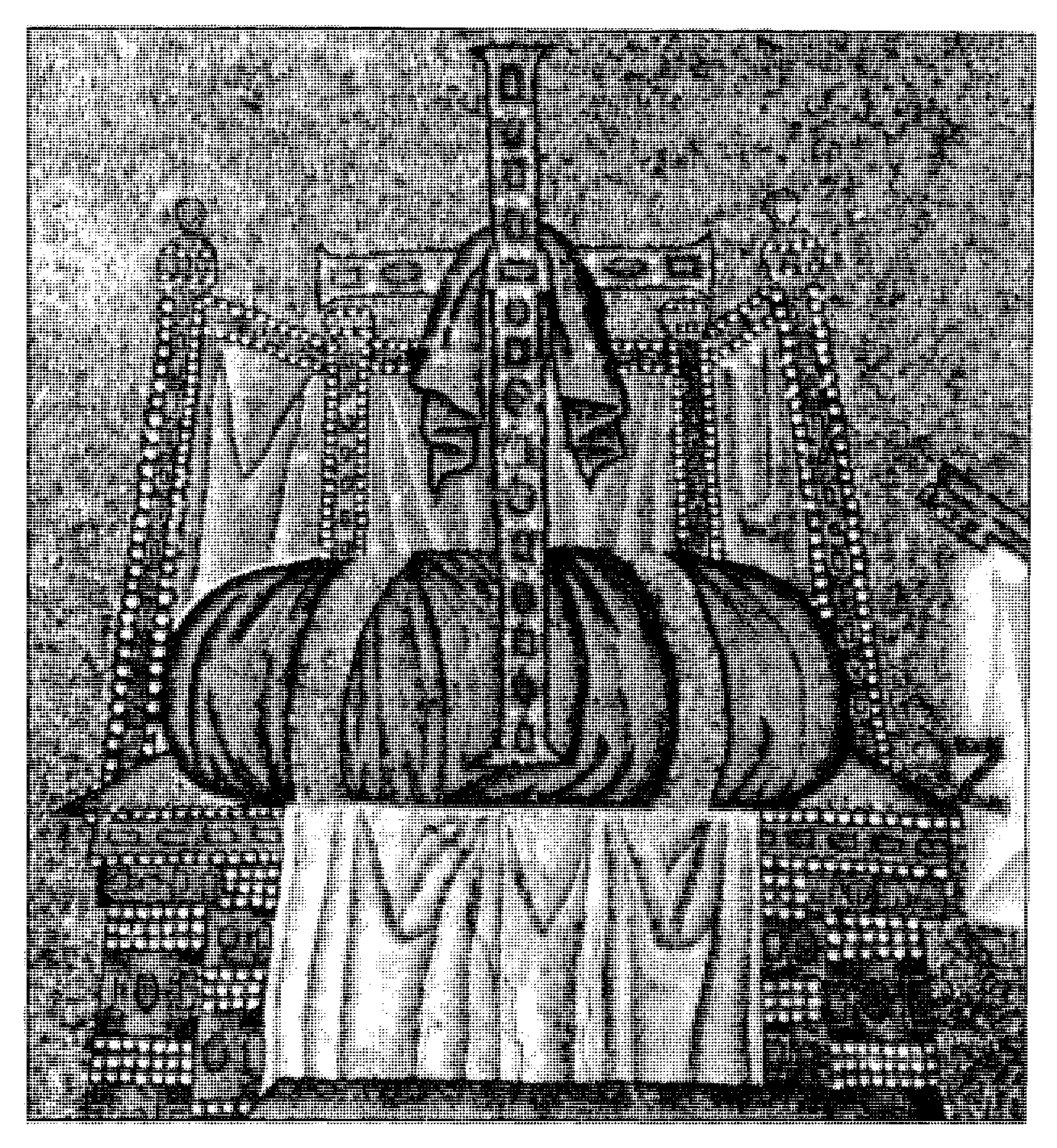


ولا شك فى أن تصور مانويل للسلطة الإمبراطورية والسيادة العالمية مستمد من الفكر السياسى البيزنطى الذى اعتنقه وتشرب به كل من جلس على عرش القسطنطينية، حقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية فى القرن الثانى عشر الميلادى لم تكن هى تلك التى كانت فى القرن الرابع الميلادى، ولكنها مع ذلك ظلت متمسكة، وعبر تاريخها الطويل، بحقها فى كونها الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية، وظلت فكرة أن إمبراطورها هو الإمبراطور الرومانى الشرعى هى القاعدة الأساسية، من الألف إلى الياء، فى جميع العقائد السياسية البيزنطية، وقد عبر أوستروجورسكى Ostrogorsky عن ذلك بعبارة بليغة جاء فيها: "لا يجرؤ أحد على ازدراء الحقائق عندما تتناقض مع العقائد كالبيزنطيين، فحينما يتعارض الواقع مع عقائدهم، تنتصر العقائد".

وحتى فى أحلك فترات الإمبراطورية سواداً، وقتما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ظل البيزنطيون متمسكين بحقهم فى كونهم الرومان الحقيقيين، وما عداهم مجرد برابرة أجلاف، وظلت قصة الإمبراطورية المنقولة تشكل أساسا لإثبات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية فى مواجهة الغرب، فقد راح البطريرك فيلوثيوس كاكينوس Philotheos Kakkinos ، وقت استيلاء الجنوية على هيرقلية Herakleia عام ١٣٥٢م، يدافع عن هذا الحق بقوله: "لقد نقلت إمبراطورية الرومان العظيمة من إيطاليا إلى الشرق عندما اهتدى قسطنطين العظيم بإرادة الرب من الهللينية إلى الإيمان المسيحى، وشيد على أنقاض بيزنطة هذه المدينة العظيمة التى حملت اسمه، ونقل السناتو من روما القديمة ليجعل من روما الجديدة صاحبة السيادة على كافة المدن الأخرى، وهكذا استقرت الأمور، حتى عصر ليو الأرمنى، الذى أدى بحربه المشئومة والشريرة ضد الأيقونات المقدسة إلى انقسام الكنيسة، واختار أهل روما القديمة لأنفسهم ملكا بربريا من ألمانيا إمبراطورا لهم، وادعوا أنهم الرومان، فليعلموا أننا الرومان الحقيقيون، وما يدفع الآخرين إلى الادعاء بكونهم رومانا إلا الحماقة وقصر النظر".

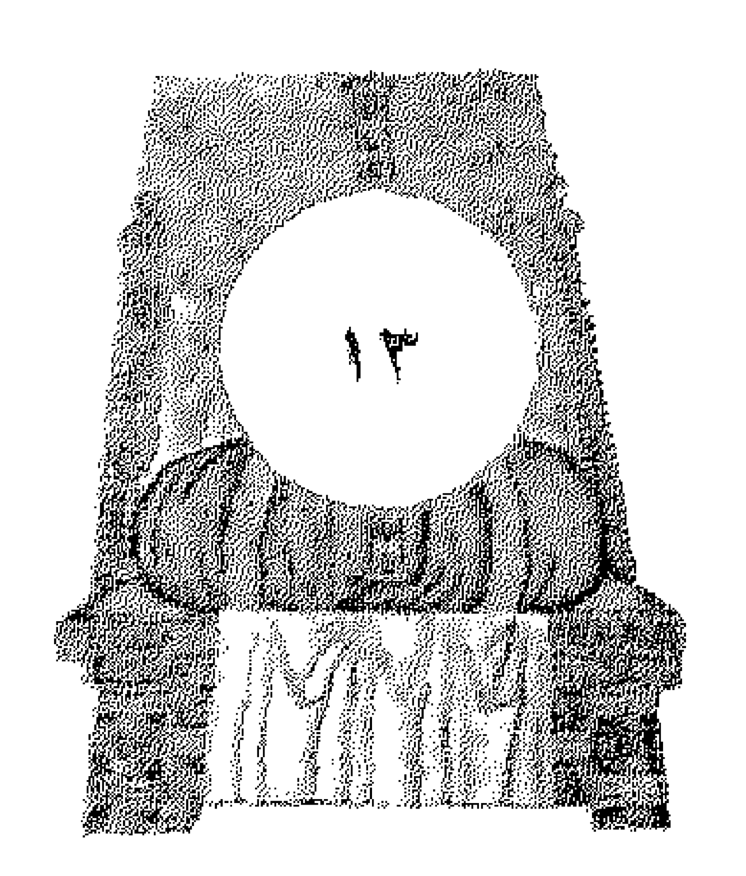
وبهذه الخلفية التاريخية والأيديولوجية، سياسيا ودينيا وحضاريا، فرضت مجريات الأحداث على البيزنطيين واللاتين منذ أمد بعيد أن يسيروا فى اتجاهين متباعدين، وكلما دفعهم أمر ما إلى الاتصال، تكون النتيجة الحتمية هى الصدام، ويؤكد ذلك سلسلة من الأحداث بدأت بالأزمة اللاأيقونية-حركة تحطيم الصور والتماثيل المقدسة فى بيزنطة-لتشعل نيران الصراع بين البابوية



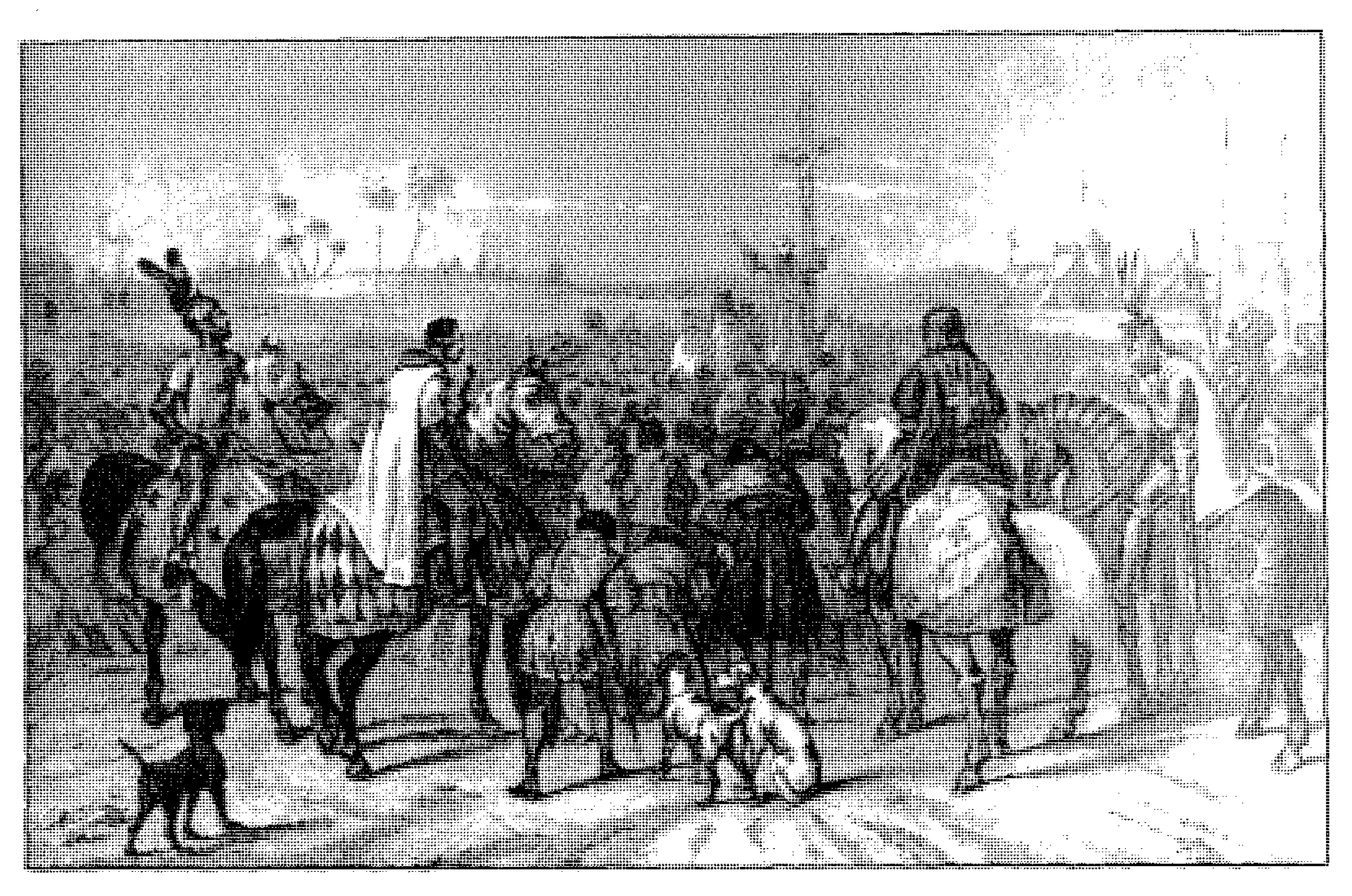


فسيفساء بيزنطية ترمز لعـرش العـالم المسيحى- رافينا القرن السادس

والشرق البيزنطى، ثم إحياء اللقب الإمبراطورى فى الغرب واندلاع الصراع السياسى بين حاكمى الشرق والغـرب على وراثة اللقب الإمبراطورى الرومانى، فـالانشقاق الدينى الذى باعد عـقائديا ومذهبيا بين كنيستى القسطنطينية الأرثوذكسية والبابوية الكاثوليكية، مرورا بتعاظم الخطر النورمانى فى صقلية وجنوب إيطاليا على أراضى الإمبراطورية، والاستـغلال التجارى لمدن إيطاليا التجارية، كل هذه التطورات أسهـمت فى خلق كراهية لا قرار لهـا بين شطرى العالم المسيحى فـى العصور الوسطى، أو بالأحرى بين شـطرى الإمبراطورية الرومـانية قديمـا، وتتجاوز هذه الكراهيـة حدود التباعد السياسى والدينى والحضارى، لتشمل أيضا المستوى الشعبى.

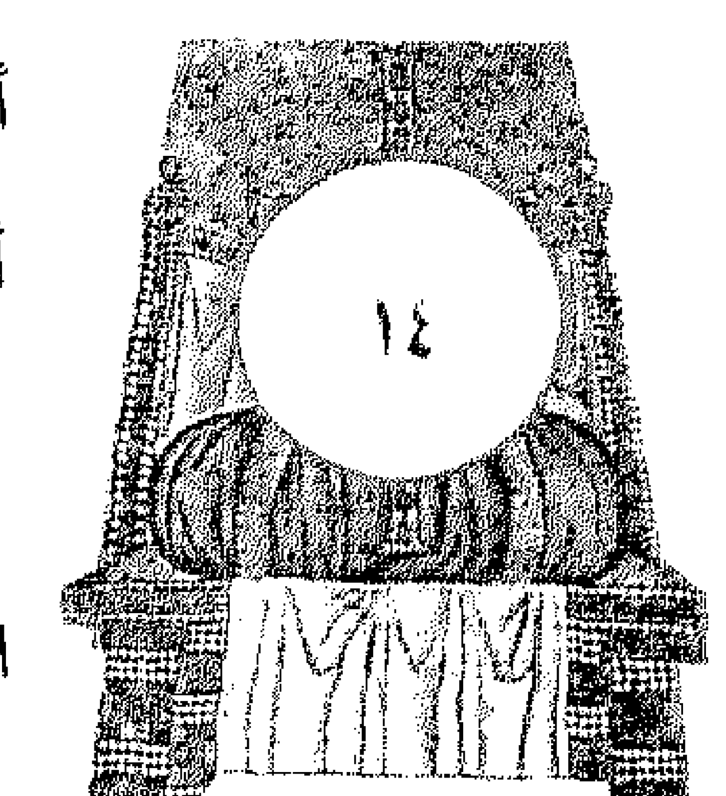


الفصل الثانى
"الحرب المقدسة" بين بيزنطة والغرب الأوروبى النظرية والتطبيق



البابا أوربان الثانى يدعو للحرب الصليبية المقدسة

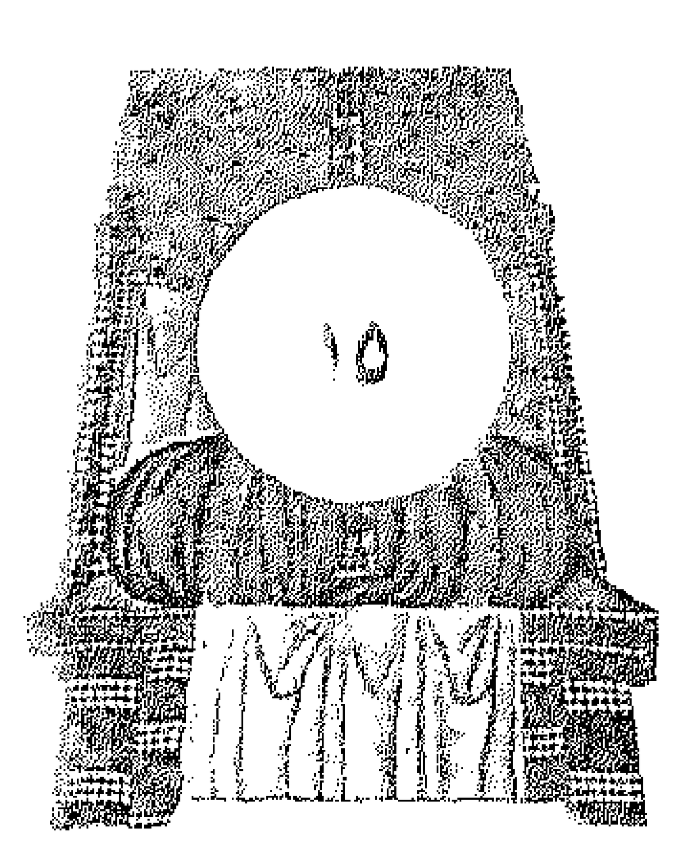
فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥م، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا، وفى الجلسة الأخيرة من جلسات مجمع كنسى شهدته المدينة على امتداد تسعة أيام، راح حبر روما الأعظم، البابا أوروبان الثانى Urban II، يوجه دعوة عامة لمسيحيى الغرب، حاضرهم وغائبهم، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لإنقاذ إخوانهم المسيحيين هناك من ويلات العذاب التى يتعرضون لها، واستخلاص القبر المقدس من الانتهاكات التى تلحق به-فى تصوره-على يد المسلمين، قال: " . . . . عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين فى المشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما التمسوها، إن الأتراك قد هاجموهم. . وقتلوا وأسروا الكثيرين، وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله، وإن سمحتم لهم أن يتابعوا عدوانهم يصبح احتلالهم وقهرهم لشعب الله المؤمن أشمل وأعم؛ لذا، وبصلاة خاشعة، فإننى، لا بل الله وليس



أنا، يحثكم يا جنود المسيح أن تسرعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا، وتمدوا يد العون للسكان المسيحيين قبل فوات الأوان".

بهذه العبارات الحماسية، راح مفجر أكبر حرب عنصرية عبر التاريخ الإنسانى، ينسج خيوط فكرة "الحرب المقدسة" بذريعة إنقاذ مسيحى الشرق والأماكن المقدسة من يد المسلمين، واعدا "جنود المسيح" على حد تعبيره، بغفران خطاياهم إذا ما واجهوا الموت، ناسيا أو متناسيا أن مسيحى الشرق الأرثوذكسيين لم يجمعهم بمسيحى الغرب الكاثوليكيين مذهب أو عقيدة، أو حتى أى حياة أو فكر مشترك، فكلاهما يرى الإخر كافرا هرطيقا، وأنهم لم يروا حرية دينية أو أمنا على أنفسهم وذويهم مثلما رأوا فى ظل الحكام المسلمين، والأهم من هذا وذاك أن فكرة "الحرب المقدسة" لم تكن واردة على الإطلاق فى قاموس مسيحى الشرق الدينى، أو فى إنجيل المسيحية بعامة.

هكذا، أعلنت الصليبيات بواسطة أعلى سلطة دينية فى الغرب الأوروبى، ووجهت تجاه هدف دينى زائف، ووعد المشاركين فيها بأكبر جائزة دينية وهى التكفير عن الخطايا، وهذا الإطار الأيديولوجى لم يكن واردا فى ذهن البيزنطيين، بل على حد تعبير أحد الباحثين المحدثين وهو دينيس Dennis" أن هذا الشكل من الحروب المقدسة كان مقيتا بالنسبة للبيزنطيين"، ويكفى أن نطالع ما كتب عن هذه الحرب والمشاركين فيها بين صفحات الكتابات التاريخية البيزنطية المعاصرة لهذه الحركة، ككتابات الأميرة آنا كومنينا، أو المؤرخين كيناموس ونيقتاس الخونياتى ويوستاثيوس السالونيكى وغيرهم، وهو ما سنفصل له لاحقا، لندرك مدى المقت والكراهية التى اعتملت فى نفوس البيزنطيين تجاه الحركة برمتها، حقيقة أن بعض البيزنطيين رحبوا، أو اضطروا إلى الترحيب بالصليبيين، خاصة على المستوى الرسمى، باعتبارهم مسيحيين، حتى وأن اختلفوا عنهم فى المذهب والطقوس، كالإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس، الذى عاصر الحملة الصليبية الأولى، والذى تعامل معهم بتحضر، وبصورة ودية تقريبا، رغم استيائه الدائم من سلوكهم وتصرفاتهم فى أراضيه، وزودهم بالمساعدة العسكرية والمؤن والأدلاء، وقام بنقلهم عبر مضيق البوسفور إلى منطقة آسيا الصغرى، لكن بصفة عامة بدا البيزنطيون غير مدركين على الإطلاق للدافع الذى جعل كل هذه الجيوش الجرارة وكل هؤلاء الفرسان اللاتين يزحفون فى اتجاه الشرق وعبر أراضيهم، ربما رأى البيزنطيون أن استرداد بيت المقدس وإعادته للحكم المسيحى هدفا جديرا بالثناء، ولكنهم مع ذلك تساءلوا هل يستحق مثل هذا المجهود الضخم المحفوف بالمخاطر والنتائج غير المأمونة العواقب.



وبالإضافة إلى ذلك، كان البيزنطيون يرون فى مدينتهم "أورشليم الجديدة"، المدينة المقدسة الحقيقية، وأنهم شعب الله المختار "الجديد"، فإذا كان اليهود يرون أنهم شعب الله المختار فى العهد القديم، فالبيزنطيون هم أصحاب العهد الجديد وشعبه المختار الجديد، ومن ثم باتت مدينتهم من وجهة نظرهم لها من القداسة ما لا تقل به أبدا عن أورشليم القديمة، فعلى سبيل المثال نجد كاتبا بيزنطيا فى القرن الثالث عشر، هو نيقولاس ميزاريتس، يؤكد أنه برغم احتواء أورشليم على الضريح المقدس، إلا أن أهل العاصمة كانوا يشعرون أن المسيح نفسه فى وسطهم وذلك بسبب احتفاظهم فيها بصليب الصلبوت والحربة المقدسة وإكليل الشوك وقطعة الإسفنج التى قدم اليهود فيها الخل إليه والمسامير التى سمرت جسده إلى خشبة الصليب والأكفان التى لف بها الجسد بعد الصلب.

كذلك كان البيزنطيون واقعيين أكثر من الغرب الأوروبى، فسياستهم كانت أكثر اهتماما بامتلاك إنطاكية ذات الموقع الإستراتيجى الهام، من امتلاك بيت المقدس بكل قيمته وأهميته الروحية، ولذلك فإن البيزنطيين إذا كانوا قد فهموا الحج المقدس وفهموا الحرب، إلا أنهم ظلوا غير متفهمين أو مدركين لمسألة الدمج بين الاثنين، لقد ارتاعوا بشدة عندما أعلن القديس برنارد St.Bernard دعوته لإبادة الكفار، وكذلك تأكيده بأن قتل أى عدو للمسيح ليس قتلا وإنما خلاصا للروح، وازدادوا ارتياعا عندما رأوا رهبان الغرب يتخلون عن مهمتهم الروحية ويرتدون ثياب الفرسان حاملين اسم "فرسان المعبد" وشاهرين أسلحتهم المعدنية البيضاء، عندئذ بدأ البيزنطيون يقلبون ذكرياتهم المريرة مع الغرب الأوروبى، وكيف أن الأخير يعتبرهم خارجين عن دائرة الإيمان المسيحى، ويصنفهم ضمن الكفرة والهراطقة، عندئذ بدأ البيزنطيون يتجهون نحو الاعتقاد بأن محاربى الغرب لا يحملون شيئا فى عقولهم أكثر من غزو الإمبراطورية، وجاءت مجريات الأحداث عبر الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية لترسخ هذا المفهوم فى أذهان البيزنطيين، ثم سرعان ما تحول المفهوم والنظرية إلى تطبيق عملى فى صورة الحملة الصليبية الرابعة، لتثبت أن البيزنطيين كانوا على حق فى مخاوفهم وكراهيتهم للصليبيين.

وإذا كان البيزنطيون لم يقتنعوا بفكرة الحرب المقدسة التى رفع رايتها الغرب الأوروبى من حيث المبدأ، فأنهم اختلفوا معهم أيضا فى رؤية أهدافها، وقد ظهر ذلك واضحا للغاية فى الحملة الصليبية الثانية، والتى جاءت استجابة لدعوة البابوية لإنقاذ إحدى الإمارات الأربع التى نجح فى تأسيسها صليبيو الحملة الأولى، أعنى بها إمارة الرها الصليبية التى سقطت على يد القائد المسلم المجاهد عماد الدين زنكى أتابك الموصل ١١٤٤م، ولا ريب فى أن صليبية على هذا النحو لم تكن

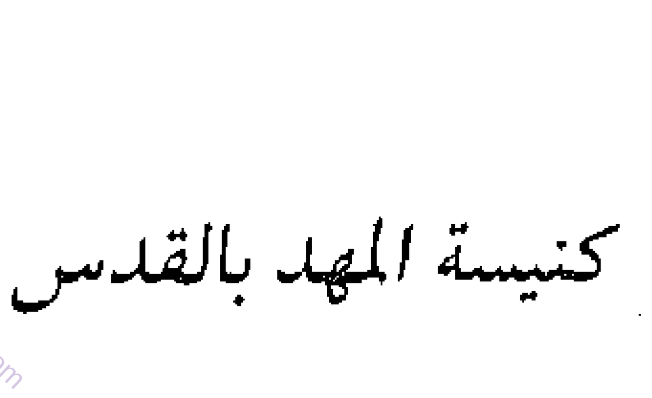
سوى نذير شؤم لبيزنطة، التى شعرت بأن العالم اللاتينى قد جعل مهمة الدفاع عن الأراضى المقدسة فى الشرق مسئولية جماعية تقع على عاتق ملوكه وأمرائه، ومعنى هذا أن الحملة الأولى لم تعد ظاهرة استثنائية، وإنما بداية نمط يمكن أن يتكرر كلما وقع خطر فى الشرق الصليبى ، وبطبيعة الحال لم تكن بيزنطة لتقبل ذلك الوضع، فالعقلية البيزنطية كانت ترى أن شئون الأراضى المقدسة جزء من سيادتها الخاصة، والدفاع عنها مسئوليتها وحدها وليس مسئولية العالم المسيحى بأكمله، ومن ثم كان مجيء الصليبيين تحت زعامة ملوكهم اغتصاب لحق بيزنطة فى حماية المسيحية الشرقية.



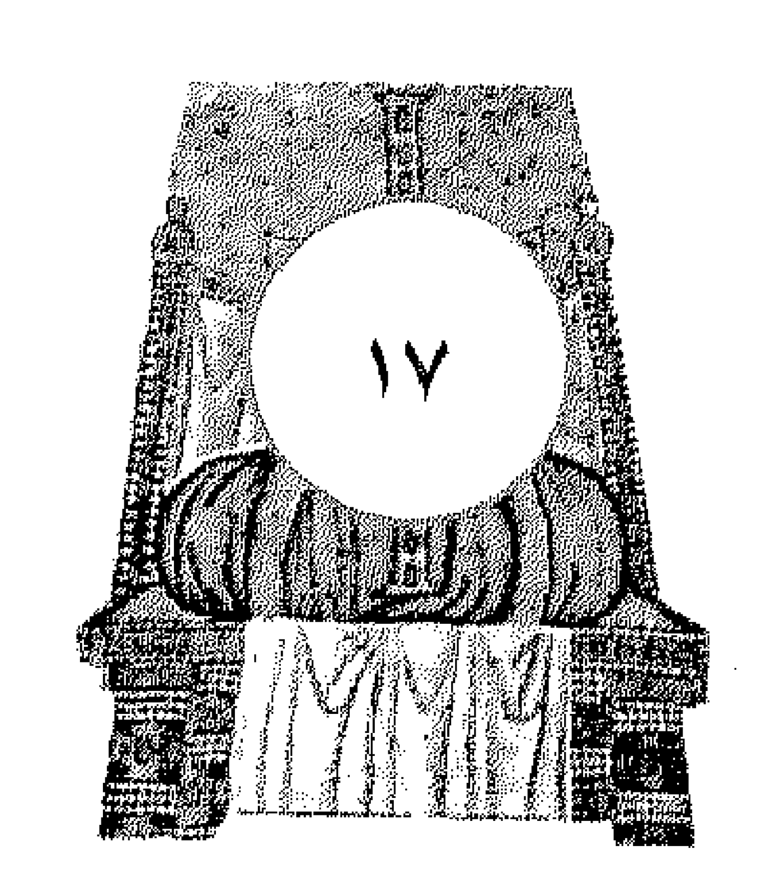
جندى نورمانى من فرسان المعبد

ومن ناحية أخرى لم يقتنع البيزنطيون بأحد المبررات الأساسية التى ساقها الغرب الأوروبى لشن حربه الصليبية على الشرق، وهو مبرر خاص ببيزنطة نفسها، وهو الدفاع عنها ضد خطر الأتراك السلاجقة الذين غزوا أراضى آسيا الصغرى التابعة للإمبراطورية البيزنطية وباتوا على مقربة من العاصمة القسطنطينية ذاتها فى أعقاب معركة منزكرت عام ١٠٧١م، وهو هدف اختلقه الغرب لهدفين، أحدهما الظهور بمظهر الحامى والمدافع عن الإمبراطورية المسيحية الشرقية من خطر المسلمين، وهو هدف بطبيعة الحال ينسجم مع فكرة الحرب المقدسة التى حمل لواءها، والثانى هو الحصول على تأييد بيزنطة لقضية الصليب وبذلها لكل ما هو غالى ونفيس من اجل نصرتها، بما فى ذلك تسهيل عملية عبور القوات الصليبية أراضيها ومدها بالمؤن والمساعدات العسكرية





كنيسة المهد بالقدس



اللازمة، وراح الغرب الأوروبى يستند فى ذلك على خطاب-أثبت عدد كبير من الباحثين المحدثين زيفه-يحمل توقيع الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس الأول كومنينوس، ومضمونه طلب مساعدة غربية عاجلة للتصدى لخطر الأتراك السلاجقة.

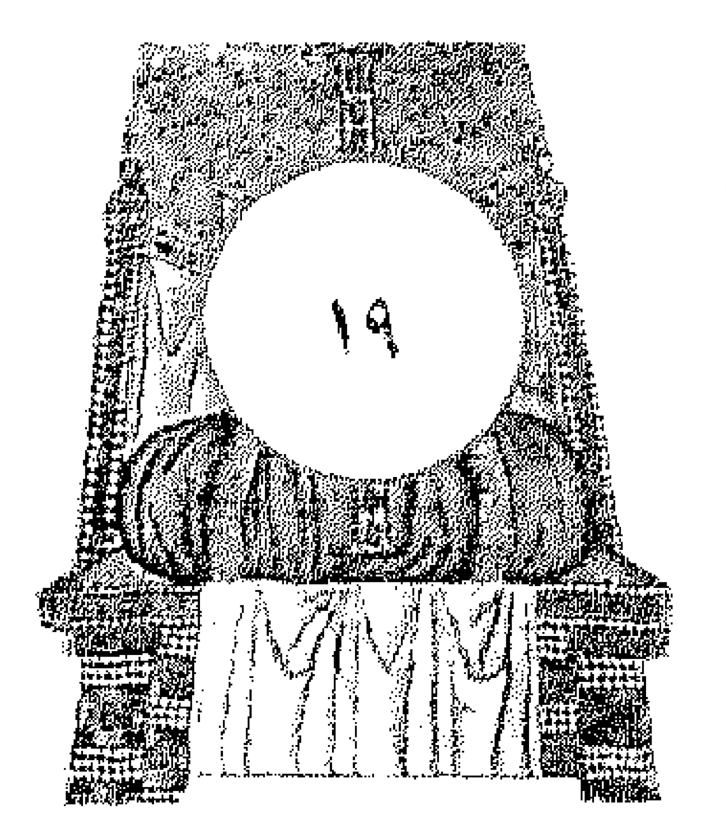
وإذا سلمنا بان ألكسيوس كومنينوس قد أرسل إلى الغرب الأوروبى يطلب مساعدة ضد الأتراك السلاجقة، فهل كان ليطلب مثل هذه الجيوش الجرارة، التى اتسمت فى معظمها بالعشوائية والفوضوية والإفتقار إلى التنظيم؟، وهل كان ليكلف نفسه مالا قد تطيقه من مؤن ومساعدات لهذه الجموع الغفيرة؟ وهل كان من السذاجة السياسية ليحمل إمبراطوريته مغبة ما قد تحدثه هذه الجحافل من أضرار وأذى لأراضيها؟ إن المنطق والموضوعية ومجريات الأحداث التالية تدعونا إلى القول بأن ألكسيوس لم يكن راغبا فى أكثر من جند مرتزقة يلتحقون بجيش الإمبراطورية تحت إمرته وسيطرته، وهو أمر مألوف وشائع فى نظام الجيش البيزنطى، ودرج عليه أباطرة كثيرون قبل ألكسيوس كومنينوس.

حروب بين السلاجقة والصليبيين



وحتى إذا قبلنا بادعاء الغرب أنه قاد هذه الجيوش الجامحة لإنقاذ بيزنطة من خطر الأتراك السلاجقة، فماذا فعل لتحقيق ذلك؟ وهل حاول إثبات صدق دعواه؟ لقد أرسل الغرب الأوروبى فى الشطر الأول من الحملة الأولى ثلة من الرعاع أو الغوغاء أو الدهماء أو العامة أو. . . .، سمهم كيفما شئت، فتلك مسميات اصطلحها الباحثون للإشارة إلى هذه المسيرة الفوضوية التى كلفت الإمبراطورية البيزنطية الكثير من الخسائر ولم تحقق لها شيئا ما، وهى مسميات تعبر بواقعية عن حال هذه الجموع التى قادها ناسك يدعى بطرس ومفلس يسمى والتر، وإذا كان هذا هو حال القادة، أحدهما ناسك والآخر مفلس، فما هى شاكلة المقودين، بالطبع زمرة ضمت النساء والرجال والأطفال، من الفرنسيين والألمان والأسبان وغيرهم، أكثرهم من الشحاذين والمتسولين والعبيد واللصوص والمجرمين وقطاع الطرق والرهبان و. . .، أو باختصار ضمت كل من استطاع أن يوفر لنفسه عصا أو بلطة، وان يضع على جسده قطعة من القماش خط عليها صليبا، فهل كانت بيزنطة بحاجة إلى هؤلاء لإنقاذها؟ وهل هذا الصنف من المحاربين هو الذى سيدرأ خطر الأتراك السلاجقة عنها؟.

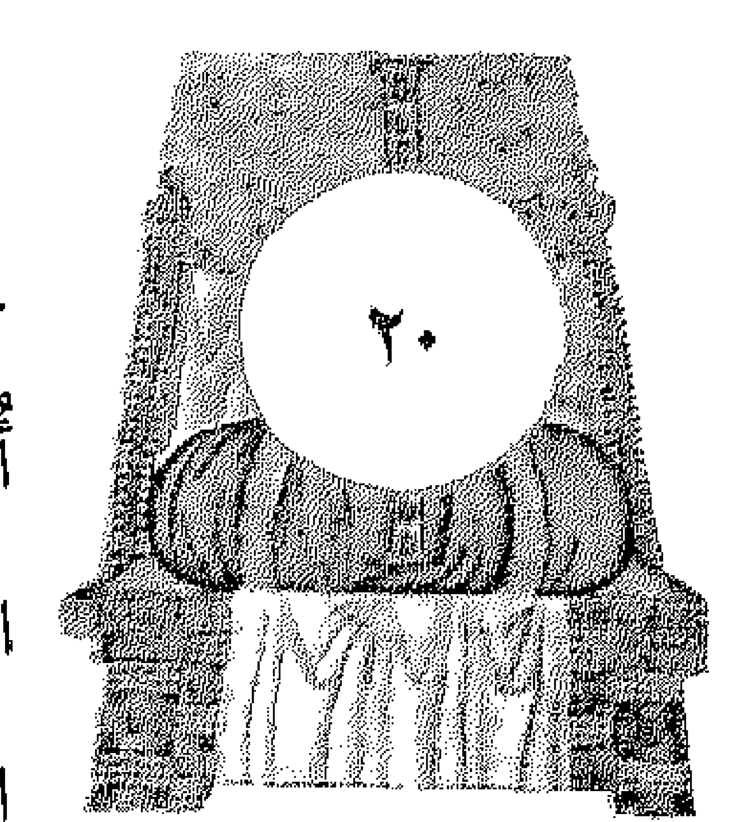
وجاء الفريق الثانى من الحملة الأولى، فى صورة جيش نظامى يقوده أكبر أمراء غرب أوروبا قاطبة، وكان على ألكسيوس كومنينوس بعد أن وعى الدرس القاسى الذى لقنته إياه حملة الرعاع وما أحدثته فى أراضيه من أضرار بالغة، أن يضمن حسن نوايا القادمين الجدد، فراح يطلب منهم قسم يمين الولاء له، والتعهد بعدم الإضرار بأراضى إمبراطوريته، وبإعادة كافة الأراضى التى قد يستولى عليها الصليبيون من الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى والتى كانت قبلا تابعة لإمبراطوريته، بما فى ذلك مدينة إنطاكية، ولم يكن الأمر بالهين أو اليسير، فقد ماطل أكثرهم فى أداء القسم، ورفض بعضهم، وراح ألكسيوس يستخدم معهم سلاح قطع المؤن والإمدادات عن قواتهم لإرغامهم عليه، ولكن حتى من أدى القسم لم يلتزم به، فاستباح الأراضى البيزنطية، وحتى بعد توقيع صلح القسطنطينية ١٠٩٧م الذى تعهد فيه أمراء الصليب بإعادة الأراضى التى كانت لبيزنطة قبل اجتياح السلاجقة لها، بما فى ذلك إنطاكية، إلا انهم لم يلتزموا بها، بل إن أحدهم وهو الأمير النورمانى بوهيموند ادعى لنفسه الحق فى إنطاكية ليؤسس عليها إحدى الإمارات الصليبية الأربع، وليقطع بذلك شريانا بيزنطيا ظل يمثل جرحا داميا فى علاقات بيزنطة بعدوها اللدود مملكة النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية، والذى استمر نزيفه بلا انقطاع طوال



القرن الثانى عشر الميلادى، فهل كان تصرف وسلوك أمراء الحملة الأولى لحلفاء جاءوا لنصرة البيزنطيين وإعادة أملاكها المسلوبة؟.

لقد أثبتت أحداث الحملة الصليبية الأولى للبيزنطيين زيف فكرة الحرب المقدسة التى ادعاها الغرب الأوروبى، وأن الخطر الصليبى على أراضى إمبراطوريتهم وسلامتها بات يفوق خطر الأتراك السلاجقة أنفسهم، بل لا نبالغ إذا ذهبنا إلى حد القول بأن البيزنطيين باتوا يخشون الصليبيين ويضمرون لهم كراهية لم يستشعروها مع المسلمين، إلى الحد الذى دفع البطريرك البيزنطى ميخائيل أنخيالوس Micheal Anchialos -منتصف القرن الثانى عشر- إلى التساؤل فى حوار مع سيده الإمبراطور: "أى سيدى، لم لا تكون عمامة التركى أحب إلىَّ من قلنسوة البابا، فليكن الأول سيداً لى فى أمور الدنيا بدلاً من أن يسودنى الآخر فى شئون الدين، فإن خضعت للمسلم فإنه على الأقل لن يجبرنى على الدخول فى دينه، أما اللاتينى فسيضطرنى إلى التخلى عن الإيمان القويم".

وعلى مثل ذلك النحو؛ جاءت الصليبية الثانية لتكون بحق صدمة قاسية لنظام أسرة كومنينوس الإمبراطورى، وبدرجة تفوق ما أحدثته الحملة الأولى، حقيقة أن القوات الألمانية والفرنسية التى عبرت الأراضى البيزنطية عام ١١٤٧م لم تكن بضخامة وخطورة القوات التى عبرتها منذ خمسين عاماً خلت، ولكنها كانت كفيلة بأن تثير حالة من الذعر والقلق فى نفوس أهل بيزنطة، على المستويين الرسمى والشعبى، تفوق الحالة التى تسببت الحملة الأولى فى إحداثها، ويرجع ذلك إلى أن ذكريات هذه الحملة الأليمة كانت لا تزال عالقة وحية فى الأذهان، وكان فى البلاط البيزنطى أُناس لا يزالون يتذكرون بمرارة بالغة ما أحدثه صليبيى هذه الحملة بأراضيهم من سلب ونهب وتدمير، ويكفينا على أولئك مثلاً، الأميرة آنا كومنينا Anna Comnena عمة مانويل، والتى كانت تضع حينذاك اللمسات الأخيرة لكتابها عن سيرة حياة ابيها الإمبراطور ألكسيوس الأول، الألكسياد The Alexiad، والذى فيه قدمت الحملة الأولى وعبورها الأراضى البيزنطية كأهم إنجازاته على الإطلاق، وأظهرت مدى الأخطار التى يمكن أن يحدثها وجود مثل هذه القوات المتغايرة العناصر لأمن وسلام الإمبراطورية الداخلى، وإذا كانت صفحات الألكسياد صادقة، فإن دوائر البلاط البيزنطى كانت ترى بالفعل أن الهدف الحقيقى لصليبيى الحملة الأولى هو غزو القسطنطينية، ومن ثم كان من الطبيعى أن يكون لصليبيى الحملة الثانية الهدف ذاته.



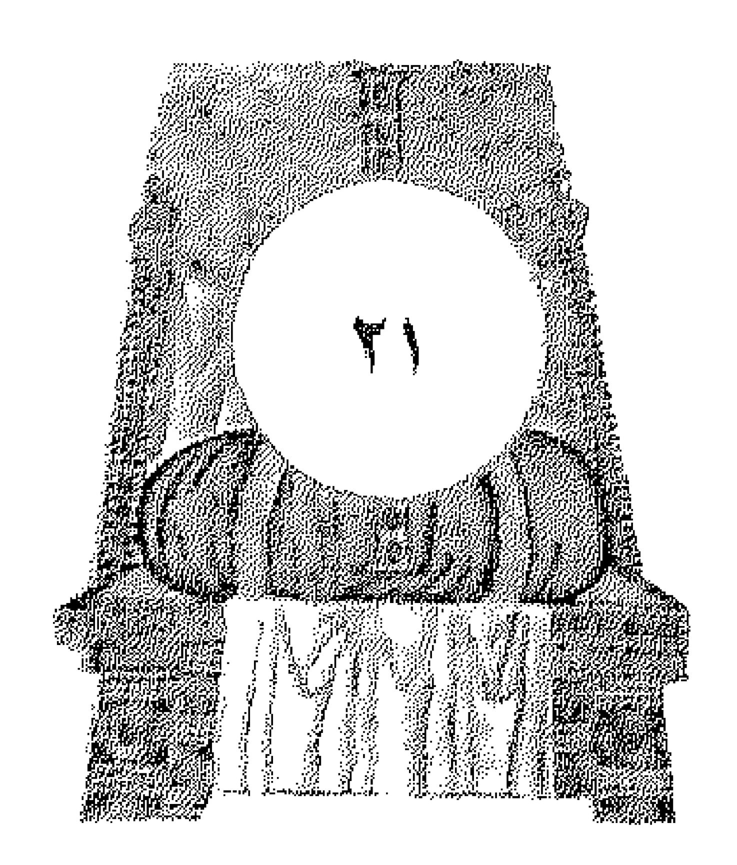
ولا شك فى أن دعوة الغرب لهذه الحملة الجديدة قد أتاحت الفرصة لحدوث حالة من الذعر العام فى بيزنطة، فكثر الحديث حول نبوءات قديمة أُحييت من الرقاد بشأن تدمير القسطنطينية، وظهرت شائعات وتخمينات تبث الرعب فى النفوس بأن هذه النبوءات فى سبيلها لأن تتحول إلى حقيقة بمجرد اقتراب الصليبيين من مدينة قسطنطين، وربما كان فى إقدام مانويل على تدابيره الوقائية بترميم أسوار وقلاع المدينة، وهو ما لم يقم به جده، ما يعبر تعبيراً واقعياً عن حالة الذعر التى اجتاحت نفوس شعبه.

ومن ناحية ثانية؛ كانت الصليبية الثانية من وجهة النظر البيزنطية أكثر خطراً من الأولى، ففى الوقت الذى كانت صليبية عام ١٠٩٥م فى جانب منها استجابة لحاجة بيزنطية، كانت الصليبية الجديدة استجابة غربية لسقوط إمارة الرها الصليبية فى يد المسلمين، ولم تكن ملتمسة على الإطلاق من قِبَل بيزنطة، وحتى إذا كان ألكسيوس الأول قد ناشد الغرب المساعدة لمواجهة الأتراك السلاجقة الذين ولوا وجوههم شطر القسطنطينية واحتلوا أراضى تابعة للسيادة البيزنطية فى آسيا الصغرى، فإن مانويل لم يطلب أى مساعدة، بل ربما كانت دوائر الحكم البيزنطية فى العقد الخامس من القرن الثانى عشر لا تخشى خطر السلاجقة بقدر خشيتها للخطر الصليبى.

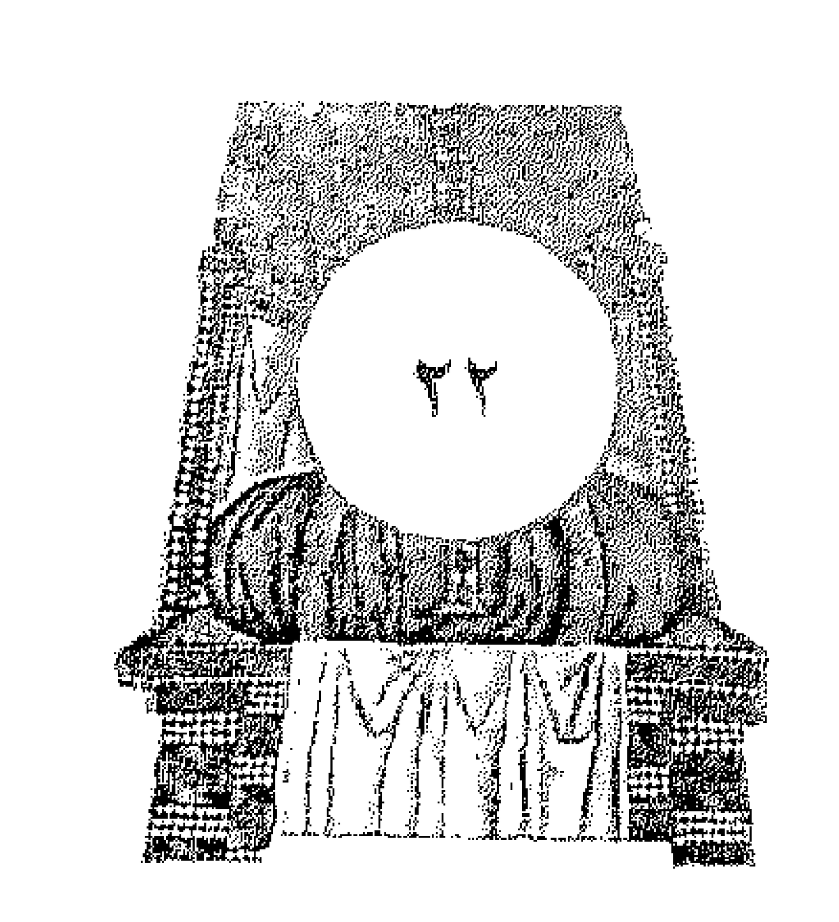
وبالإضافة إلى ذلك؛ لم تكن الحملة الجديدة مشروعاً صليبياً يقوده مجرد أمراء إقطاعيين مثل الحملة الأولى، بل صليبية قادها أكبر عاهلين فى غرب أوروبا حينذاك، ملكان ترتفع منزلتهما على قسم الولاء الإقطاعى من ذلك النوع الذى مارسه ألكسيوس الأول على أمراء الحملة الأولى،



كنيسة القيامة – القدس



ملكان لم يأت أى منهما للبحث عن إقطاع أو إمارة له فى الشرق، بل إن كلا منهما اعتقد أن مجيئه إلى الشرق امتداد طبيعى لسيادته الملكية على شئون العالم المسيحى، وحمل الصليب وقد وضع فى اعتباره أنه بذلك يمارس وظيفته كملك على ذلك العالم، وعزم على العودة من الحملة وقد تعزز سلطانه. كلاهما رأى فى نفسه الوريث الشرعى لأباطرة الرومان العظام، ووقعا تحت تأثير رجال الكنيسة الذين غرسوا فيهما الإحساس بالواجب المقدس، فكان كل منهما حريصاً على أن يظهر فى هيئة المدافع عن كنيسة المسيح فى الشرق ضد أعدائها الذين من بينهم يمكن بسهولة إدراج البيزنطيين فى ضوء حملاتهم على إمارة إنطاكية لاستردادها من قبضة النورمان.



الفصل الثالث
الصليبيات وبيزنطة
عبور جسر أم محطة أخيرة

سمع -الإمبراطور- أقاويل تتحدث عن قرب وصول عدد كبير من جيوش الفرنجة لا عد لها ولا حصر، وقد خشي من وصولهم على أساس معرفته بطباعهم وأخلاقهم التى لا يمكن ضبطها، وبولعهم فى الفوضى وحبهم لعدم الاستقرار، هذا إذا ما أغفلنا الحديث عن بقية طباع الفرنجة وصفاتهم السيئة، وما كان ينجم عن ذلك من مشاكل، فجشعهم للمال غالبا ما قادهم إلى نقض اتفاقاتهم دون أى مسوغ مهما كانت درجته، وكان الإمبراطور قد سمع هذا عنهم بشكل متواتر، وقد تأكد جميعه لديه فيما بعد، ومع ذلك حافظ الإمبراطور على رباطة جأشه، وأقدم على اتخاذ كافة الإجراءات، واستعد لخوض الحرب إذا ما دعت الضرورة لذلك".

بهذه الكلمات استهلت الأميرة آنا كومنينا حديثها عن الحملة الصليبية الأولى، معبرة عما كان يدور فى دهاليز البلاط البيزنطى من تكهنات ومخاوف من ذلك القادم فى الأفق، وهى مخاوف نابعة عن معرفة سابقة بطباع هؤلاء القوم، كما عكست بوضوح مدى الأخطار التى يمكن أن يحدثها وجود مثل هذه القوات المتغايرة العناصر لأمن وسلام الإمبراطورية الداخلى؛ ولذلك ختمت الأميرة كلماتها بالقول: "وكان ما حدث بالفعل أكبر بكثير مما أوحت به مضامين الإشاعات والأقاويل، إنه لأمر رهيب حقا...".

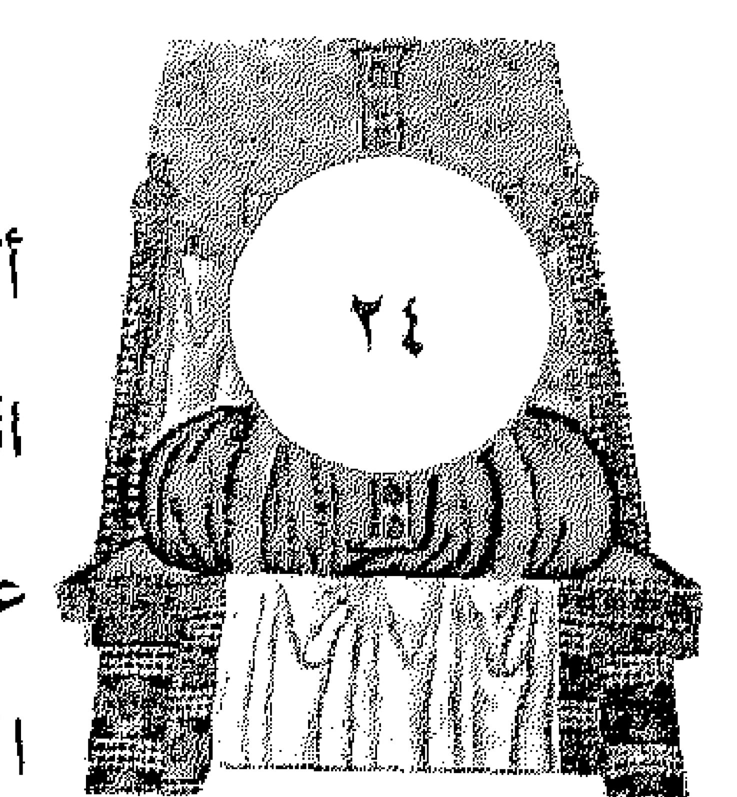
لقد وضح للأميرة منذ اللحظة الأولى المقاصد الحقيقية لهذه الحرب، وتنبهت بذكائها الفطرى أنها لا تمت للقداسة بصلة، طالما كان أحد أهدافها الخفية هو ابتلاع بيزنطة ذاتها، فكتبت تقول: "كانت لهم غايات أخرى ومقاصد مغايرة، ذلك أنهم أملوا أنهم سيتمكنون أثناء رحلتهم، من الاستيلاء على العاصمة نفسها، وكانوا يرون أن الاستيلاء عليها سيكون نتيجة طبيعية لحملتهم..."، وفى عبارة أخرى أكثر وضوحا كتبت: "أحدث-الفرنجة-فوضى عظيمة عن طريق خداع الناس السذج، ذلك أن الشهوة إلى تملك الأراضى البيزنطية استولت على نفوسهم منذ زمن بعيد؛ ولهذا أقدم هؤلاء القوم على بيع أراضيهم، بدعوى أنهم مغادرون البلاد لحرب الأتراك ولتحرير القبر المقدس".

وأثناء عبور الحـملة الصليبية الأولى أثبـتت الأحداث التى جرت على جسر العبـور البيزنطى صدق مخاوف البـيزنطيين، فحملة الرعـاع العشوائية راحت تلحق الخـراب والقتل والسلب بـالأراضى التى اجتـازتها فى منطقـة البلقـان، ورغم ذلك تلقـاها ألكسـيـوس كومنيـنوس بترحـاب عند أسـوار العاصـمة، ونصح بطرس الناسك وأتبـاعه بالبقـاء حول أسوار المدينة ريثـما يصل أمراء الحملة النظامية، مع مراعاة الانضـباط واحترام حقوق السكان، إلا أن هؤلاء عاثوا فى ضواحى القسطنطينية فسادا، وأضرموا النيران فى القصور البيزنطية وانتهكوا حرمة الكنائس.

وإذا كانت تلك هى مقدمات "الحرب المقدسة" ، كما يحلو للغرب الأوروبى تسميتها دوما، قتل وتدمير لمسيحيين إخوة لهم فى الدين وانتهـاك لحرمة الكنائس، فما هى يا ترى النتائج المتوقعة منها؟، لقد كان لدى البيزنطيين الحق كل الحق فى مخاوفهم وشكوكهم تجاه الأهداف الحقيقية التى يضمرها الصليبيون فى ضمائرهم، كانوا سابقين لعصرهم عندما اكتشفوا منذ البداية أن هذه الحرب ليس لها مـن القداسة شىء، بل أن نعـتهـا بالصليب ليس إلا قناعا زائفـا ارتداه جنودها لتحـقيق أهداف ليست مقدسة ولا صليبية، أولها هو تدمير أكبر إمبراطورية مسيحية فى الشرق.

لم يكن ألكسـيوس كومنينوس مـسئولا عـن المذبحة المروعة التى لحـقت بالرعاع فى آسـيا الصغـرى على يد الأتراك السلاجقـة، فالرجل كان مضطرا لأن يسـهل لهذه الجمـوع مهمة عـبور مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، حتى يتخلص من خطر داهم بدأ يفرض تهديدا وضغطا شديدا على إمبراطوريته، ومـا تعرضوا له من ذبح وتقتيل هى مسـئولية الغرب الأوروبى الذى أرسل هذه الحثالة قبل أن تكون مسئولية بيزنطة أو إمبراطورها.

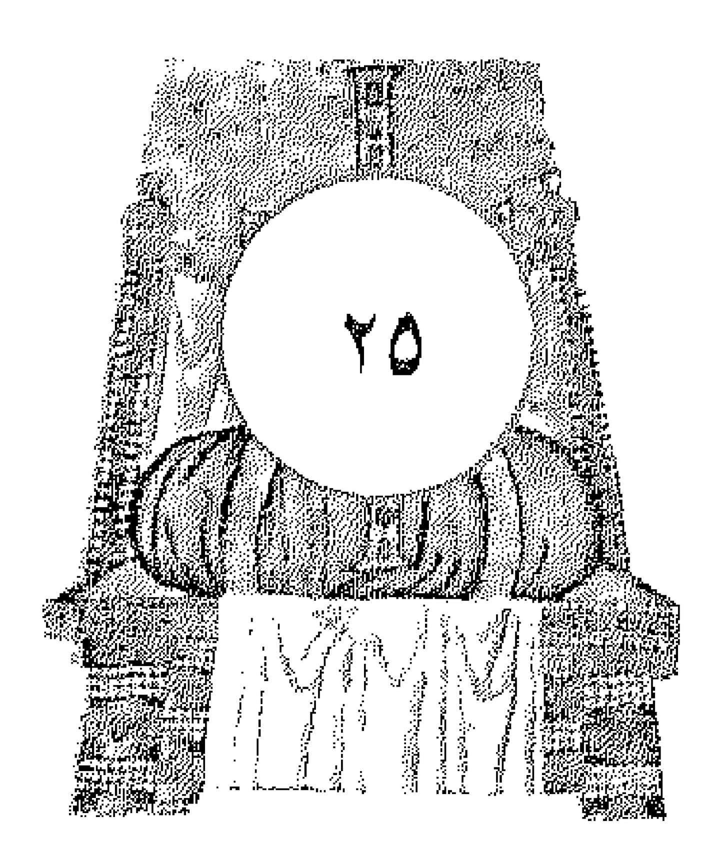
وهكذا أخفقت حملة الرعاع من تحقيق أى هدف صليـبى، بل كان كل ما استطاعت تحقيقه هو أنه تركت آثارا سيئة فى نفوس البيزنطيين الذين كانوا فى ذلك الحين يتأهبون لاستقبال زملائهم الأمراء، لقد كان من سوء حظ الحملة الصليبـية الأولى أن طلائعها التى دخلت الأراضى البيزنطية فوضـوية عشـوائية، مـدمرة ومـتلفة، نبـهت البـيزنطيـين إلى الخطر الذى يمكن أن تتعـرض له إمبراطوريتهم وعاصمـتهم من الحملات النظامية الوافدة، ودفعت ألكسيـوس لأن يرسم استراتيجية جديدة مع الأمراء، تسـتهدف حماية شعـبه وأرضه وعاصمتـه من الصليبيين من جهـة، ومحاولة الاستـفادة منهم لاستـرداد أملاكه فى آسـيا الصغـرى من جهـة أخرى، وذلك عن طريق مراقـبة تحركاتهم، ومنع تجـمعهم أمام العـاصمة، وانتزاع يمين الولاء والطاعـة منهم، وإغرائهم بالذهـب البيزنطى البراق .



وإذا كان ألكسيوس قد استطاع بدبلوماسيته وعبقريته أن يعالج عبور أكثر الحملات الصليبية نجاحا فى تأسيس الكيان الصليبى على أرض الشام العربية، ووضع استراتيجية وسنة كان على من جاء بعده انتهاجها لتجنيب عاصمته خطر الصليبيات الداهم، إلا أن الأمر كان أكثر صعوبة لحفيده الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس، الذى فرض عليه قدره تحد صليبى أكثر خطرا وأعظم قوة، تمثل فى الحملة الصليبية الثانية، تلك الحملة التى قادها- كما ذكرنا سابقا- أكبر وأقوى عاهلين فى غرب أوروبا حينذاك، الملك الألمانى كونراد الثالث والفرنسى لويس السابع، وهما بالطبع ملكان ترتفع منزلتهما على قسم الولاء الإقطاعى من ذلك النوع الذى مارسه ألكسيوس الأول على أمراء الحملة الأولى.

وعلى ذلك كانت هناك أسباب كثيرة تدفع مانويل إلى القلق والشك فى نوايا صليبيى هذه الحملة الجديدة، ومن ثم كان حريصاً أشد الحرص على أن يعدَّ عدته بما يكفل حماية إمبراطوريته من الخطر القادم، فعمل على تأمين جانبه بنفس الأسلوب الذى اتبعه الإمبراطور ألكسيوس الأول

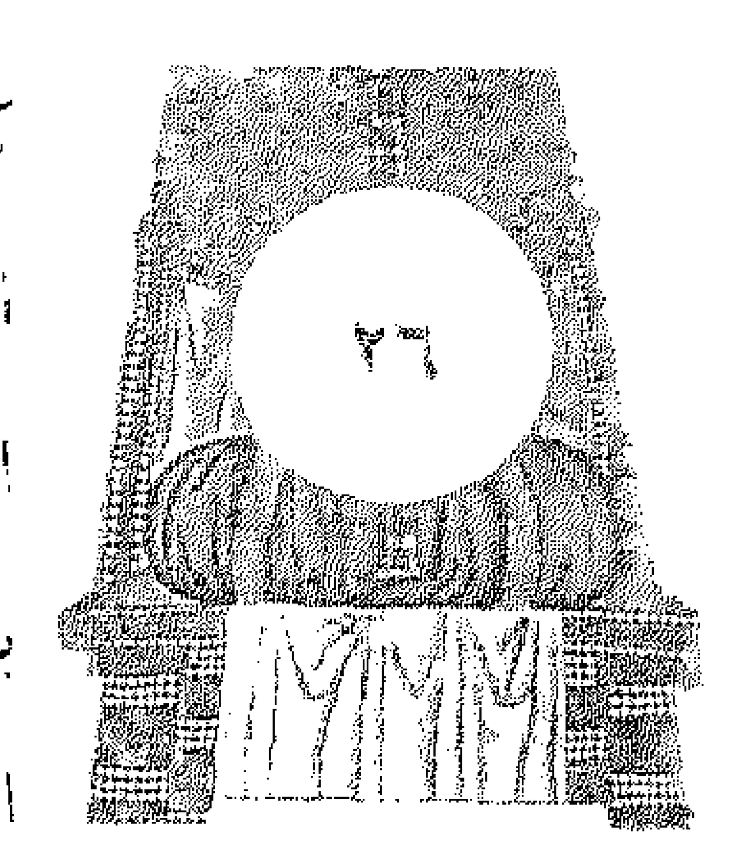
كاتدرائية آيا صوفيا - التى تحولت إلى مسجد بعد الفتح الإسلامى



مع صليبيى الحملـة الأولى، وبدأ مساعيه الدبلوماسيـة فور وصول أنباء هذه الحملة إليه، فكتب إلى البابا يوجينوس الثالث Eugenius III في أغسطس ١١٤٦م يعلن ترحيبه بالحملة، ويعد بدعم ومـساندة الصليبيين إذا ما أظهروا له نفس التكريم الذى أبداه أمراء الحملة الأولى لجده، وأقسموا له نفس قسم الولاء الذى أقسمه الآخرون من قبل، وأكد على ضرورة أن يتعهد الصليبيون بتسليمه أية أراض قد يستولون عليهـا فى آسيا الصغرى وكانت تابعة من قبل لإمبراطوريته، كـما أرسل مبعوثيه إلى الملك الفرنسى لإبلاغـه بالمطالب ذاتها، وأرسل سفراءه إلى الملك الألمانى للحصول على تعهد منه بالمرور السلمى عبر أراضيه، وعدم إلحاق أى ضرر بها.

وفى هذا السيـاق، هناك أمر جدير بالملاحظة، وهو أن أياً من نيـقتاس الخـونياتى أو يوحنا كيناموس-وهما المؤرخـيْن المعاصرين لأحداث الحملة-لم يشر إلى أن السـفارة التى أرسلها مانويل إلى الملك الألمانى قد ناقشت الطلب البيزنطى الخاص بقسم الولاء والتعهد بإعادة الأراضى التى قد يستولى عليـها فى آسيا الصغـرى والتى كانت تابعة أصلاً لبيـزنطة، وهو المطلب الذى أشار إليه- المؤرخ الفـرنسى أودو الدويلى بوضـوح على مـستوى السـفـارة التى أرسلهـا مـانويل إلى الملك الفرنسى، وقـد راح بعض الدارسين يفسـرون اختلاف مـوقف مانويل تجاه كل مـن العاهلين فى ضوء اخـتلاف طبيعـة العلاقات البـيزنطية مع كل من ألمانيـا وفرنسا، وذهبوا إلى حـد القول بأن العلاقـة التى كانت تربط بيزنطة وألمانيـا وقتذاك كـانت علاقة تحالـف، وأنه إذا ما كانت مشـاركة كونراد فى الحملة قد أضـعفت إلى أقصى مدى فرصة بيزنطة من الإفادة من ذلك التـحالف، فإنها لـم تكن سوى حدث عـرضى ومؤقت، ولذلك كان مانويل مـعتدلاً فى موقـفه تجاه الألمان، ولكن ذلك الوضع اختلف بصورة تامة مع الفرنسيين، خاصة فى ظل العلاقات الوثيقة التى ربطت فرنسا بالإمارات الصليبية فى الشرق من ناحية، وبالمملكة النورمانية فى جنوب إيطاليا من ناحية أخرى .

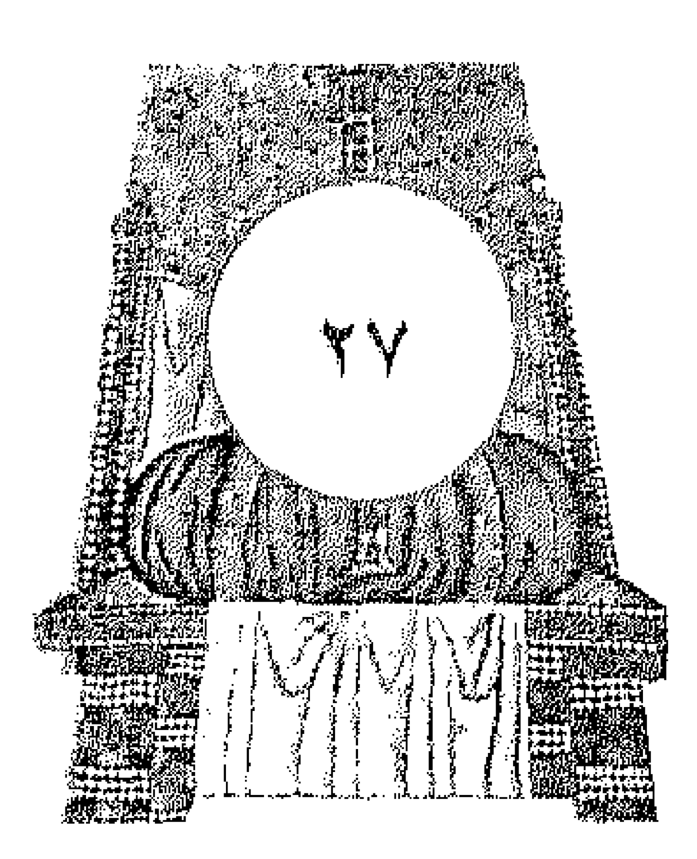
وربما تكون وجهـة النظر هذه تحمل فى طياتهـا بعض الوجاهة من الناحـية النظرية، ولكن الواقع الفعلى كان يختلف تماماً، حقيقةً أنه كـانت هناك معاهدة قائمة بين مانويل وكونراد، بيد أن مشـاركة الأخير فى الصليـبية الجـديدة كانت تجاهلاً صارخـاً لشروط تلك المعاهدة، كـما أن هذه المشاركة أمراً لم يكن مـانويل يتوقعه، فالحملة الأولى كـانت مشروعاً صليبياً فـرنسياً، والإمارات الصليبية فى الشرق فرنسية الطابع واللغـة ، هذا بالإضافة إلى أن البابوية نفسها، وهى المباركة لأية حملة صليـبية، لم تكن ترغب على الإطـلاق فى رؤية كونراد حاملاً لـلصليب إلى الشرق، وإنما كانت تفضل رؤيته كحليف لها فى إيطاليا، وخاصةً أنه كـان أملها الوحيد فى حمايتها من أعدائها الجمهـوريين المتربصين بها؛ ولذلك قـبلت قراره بالمشاركة فى هذه الحـملة باستياء شـديد، فطبقاً للفكر البابوى، كان علـى آخرين الذهاب إلى الشرق الصليبى للدفاع عن المسـيحية الشرقـية، أما



كونراد فمكانه يجب أن يكون إيطاليا للدفاع عن البابوية رأس المسيحية العالمية، واسترداد كرامتها المبعثرة، كذلك لقى قرار كونراد بالمشاركة فى هذه الحملة الامتعاض الكامل من جانب الملك الفرنسى، الذى كان يود الانفراد بشرف حمل الصليب إلى الشرق بوصفه أول ملك يقدم على ذلك بعد نجاح الأمراء فى حملتهم الأولى، هذا إلى جانب العداء التقليدى القائم بين الشعبين الفرنسى والألمانى.

وعلى ذلك؛ ألم يكن قرار كونراد بالمشاركة فى الحملة رغم أنف كل من البابا والملك الفرنسى أمراً ينذر بالخطر؟! وهل كان بحاجة إلى الإصرار على هذه المشاركة رغم عدم مباركة البابوية، ورغم ما قد تثيره من شكوك فى نفوس حلفائه البيزنطيين؟! وهل كان مانويل مضطراً لأن يكون معتدلاً فى موقفه تجاه كونراد فى الوقت الذى لم يراع الأخير أية اتفاقات سابقة، على أمل أن مشاركته فى الحملة مجرد حدث مؤقت سرعان ما يزول وتحل محله علاقة التحالف السابقة؟!

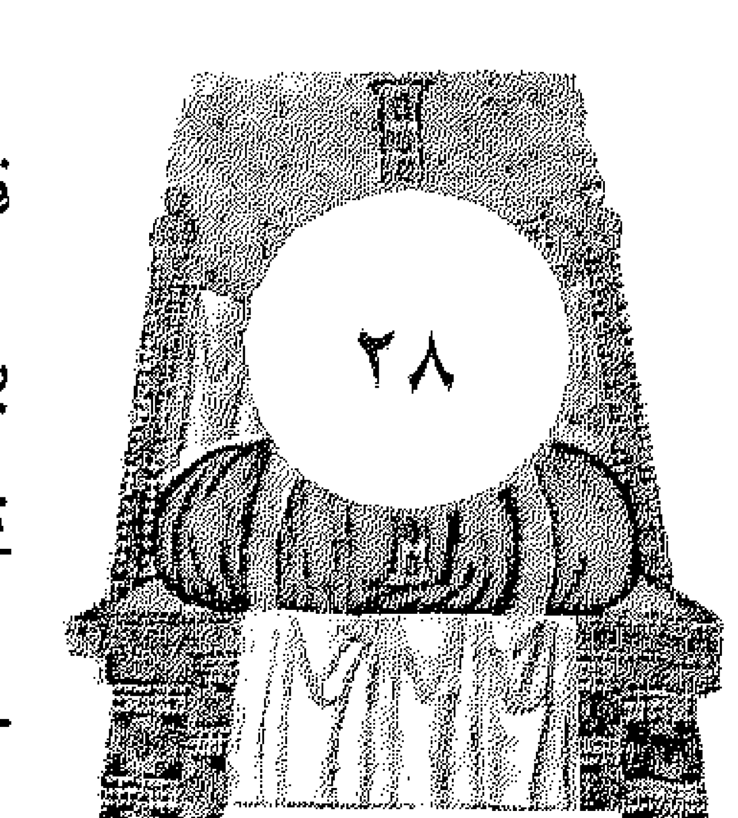
ولعل أفضل تصوير للحالة النفسية التى اعترت بيزنطة أثناء وجود الجيش الألمانى داخل الأراضى البيزنطية، نجده فى قصيدة مديح إمبراطورى كتبها الشاعر البيزنطى ماجنانيوس برودروموس Magnaneios Prodromos بعد عبور الألمان مضيق البسفور مباشرةً، وفيها يتهم كونراد بالرغبة فى الاستيلاء على القسطنطينية بقوة السلاح، وتنصيب بطريرك لاتينى على كنيستها، كما راح يكشف عن كراهيته الدفينة للألمان حينما نقل عن لسان القسطنطينية شكرها العميق لمانويل قائلاً: "قهرت أعدائى، فجعلتنى أكثر قوة، وهدأت من شيخوختى وعمرى المديد، وأوديت تجاعيد وجهى، الذى أصبح أكثر شباباً بعد أن تورد بدماء الألمان، الذين ذبحتهم كالخراف"، ويؤكد كيناموس ذلك الشعور، فيشير إلى أن البيزنطيين أنفسهم كانوا أكثر خوفاً من الألمان، حيث اعتراهم قلق من أن يكون الهدف الحقيقى للصليبيين هو احتلال أراضى الرومان، ولما كانت هذه الاتهامات تعبرا واضحاً عن مخاوف مانويل والدوائر الحاكمة فى بيزنطة، فإنها تستحق التناول بالمناقشة، وإذا كان بعض الباحثين المحدثين يرون فى هذه الاتهامات الكثير من المبالغة، وراح يناقشها فى ضوء علاقة التحالف البيزنطى-الألمانى، وأن كيناموس الذى كتب بعد عام ١١٨٠م، كان متأثراً فى اتهامه للألمان بمعايشته العداء الشديد الذى نشب بين مانويل و الملك الألمانى التالى فردريك بربروسا ، فقد يكون من الأفضل مناقشة هذه الاتهامات فى ضوء التطورات التى طرأت على العلاقات البيزنطية-الألمانية أثناء عبور الجيش الألمانى الأراضى البيزنطية.



والأمر اللافت للنظر فيما يتعلق بمسيرة الجيش الألمانى داخل أراضى بيزنطة، هو أن تلك المسيرة لم تكن تمت لشروط أى تحالف بصلة، بل إن نيقتاس الخونياتى يصفها بأنها كانت بالنسبة للبيزنطيين كعبور معجزة أليمة من كبد السماء، ومنذ اللحظة الأولى لدخول الألمان كان مانويل يشعر بالقلق تجاه مليكهم خشية أن يكون ذئبا أتى فى ثوب الحمل أو أسد يتخفى فيما وراء قناع حمار، ورغم أن مبعوثيه حصلوا من الملك الألمانى على تعهدات بأنه جاء كصديق، ولا يضمر فى نفسه آية نية سوء تجاه بيزنطة، وأنه لن يُعرِّض أمنها وسلامتها للخطر أو يلحق بها أى ضرر ، إلا أنه بمجرد تحرك الجيش الألمانى المفتقد إلى النظام حتى وقعت حوادث السلب والنهب على طول الطريق إلى القسطنطينية، وكانت مدينتا فيليبوبوليس Philippopolis وأدريانوبل Adrianople بصفة خاصة مسرحاً للدماء المراقة على الجانبين، وشهد شاهد من أهلها، وهو المؤرخ الفرنسى أودو الدويلى الذى راح يصب جام غضبه على الجيش الألمانى الذى قدم قبلاً، وأحرق ودمر كل ما صادفه فى طريقه، حتى إن الجيش الفرنسى الذى عبر الطريق نفسه فيما بعد، لم يجد فى بعض الآحيان ما يقتات به .

وفيما وراء هذه الحرب غير المعلنة، كانت هناك حرب ثانية ولكنها من نوع آخر، فهى حرب كلامية حامية الوطيس، تبادل فيها العاهلان التهديدات والاتهامات، بل والشتائم فى بعض الأحيان، حيث بدا كونراد لا رغبة له ولا قدرة على أن يفرض بالقوة قواعد الانضباط والالتزام بين صفوف جيشه، وأمام ذلك وجد مانويل نفسه مضطراً إلى اتخاذ كافة الإجراءات والاحتياطات الأمنية والعسكرية من أجل التصدى لجموح القوات الألمانية، ولم يجد فى الاتفاق البيزنطى-الألمانى، الذى بات اتفاقاً واهياً فى نظره، ما يمنعه من مخاطبة الملك الألمانى قائلاً: "عليك أن تعى جيداً أن الحصان الذى لا يخضع للجام راكبه لن ينفعه فى شىء، حتى وإن لم يكن يمتطيه فوق منحدر صخرى، والجيش الذى لا ينصاع لأوامر قائده، يورطه فى المخاطر"، فما كان من كونراد إلا آن أرسل إليه مهدداً بأنه سيهاجم بيزنطة بجيش لا قِبل له به . فهل كان هذا التهديد من جانب الملك الألمانى، وما حدث من قواته من أعمال نهب وتخريب للأراضى البيزنطية، سلوك حليف؟! وهل كان مانويل بعد كل ذلك لا يزال متعلقاً بأهداب الأمل فى تجديد الوفاق مع الألمان؟!

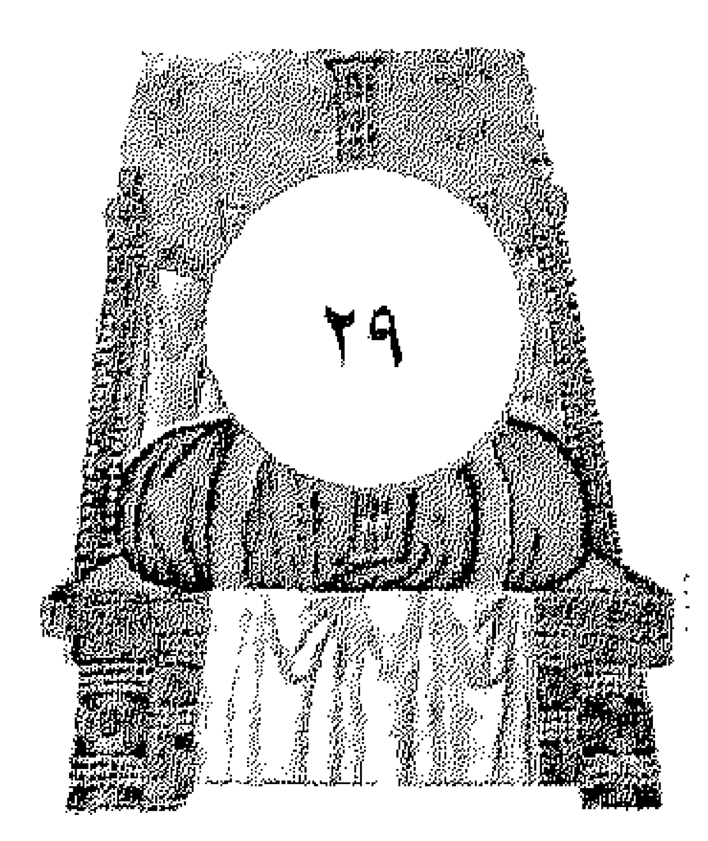
ولعلنا نجد خير إجابة على هذا السؤال فى أسطر قليلة كتبها مانويل رداً على تهديد كونراد، حيث قال فيها: "لا يغرّنك كثرة قواتك، فما هى إلا قطيع لا يدرى من آمر الحرب شيئاً، وسرعان ما يتبدد شملهم إذا ما هاجمهم أسد واحد من جيشنا، أو لا تدرى أنك قد أمسيت كالعصفور فى



قبضتنا؟! إن شئناً قدرنـا فلا نُبقى لك أثرا، وليكن معلوماً لديك أنك لست بقـادر على أن تنال من إمبـراطوريتنا، ولن تجـد عندنا ضالتك، بل سـوف تحملك أرجل جـيادك إلى حيث أتيت، ولا تلومنا، إذ لن يكون عـقابنا من جنس العمل" .

على ذلك النحـو سـارت العـلاقات البـيـزنطيـة-الألمانيـة إلى طريق مسدود، وباتت هناك حرب على وشك الانفجار بين قطبى العالم المسيحى وقتذاك، ولـم تكن هذه الحرب قاصرة على التهديدات أو على القتال المسلح الذى انفجر فى بعض الأحيان ليريق الدم على الجانبين، بل كـانت كذلك حرب الألقاب والصراع على المنزلة الإمبـراطورية، ففى ذلك الحين لم يكن على رأس العالم المسـيحى سوى إمبراطور واحد، هو مانويل، حيث لم يكن كونراد قد توج بعد على يد البـابا فى كنيسة القديـس بطرس بروما، ومن ثمْ فهو من الناحـية الرسميـة لا يحمل اللقب الإمبراطورى، ومن وجهة النظر البيزنطية كان مانويل هو الإمبراطور الرومانى الشرعى سواء رضيت البابوية أم أبت، فلم يكن الإمبراطور البيزنطى فى حاجة إلى تتويج من البابا أو من غيره، فشرعية التـاج ليست بتلقيه من يد البابا، وإنما باعتبـاره تاج قسطنطين العظيم، الذى قام منذ زمن بعيد بنقل عرش الإمبـراطورية من على ضفاف التيبر، حيث روما القـديمة، إلى شطآن البسفور، حيث القسطنطينية، روما الجديدة والمقر الجديد للإمبراطور الرومانى الشرعى. أما من وجهة النظر الغربية، البابا هو المصدر الوحيد لهذه الشرعية، وذلك منذ أن وضع البابا يوحنا الثانى عشر John XII التاج على رأس أوتو الأول Otto I عام ٩٦٢م، ومن ثم كان كونراد فـى حاجة إلى عمل يرضى به البابوية، بعد أن خيب رجاءها فـيه بعدم ذهابه إلى إيطاليا.

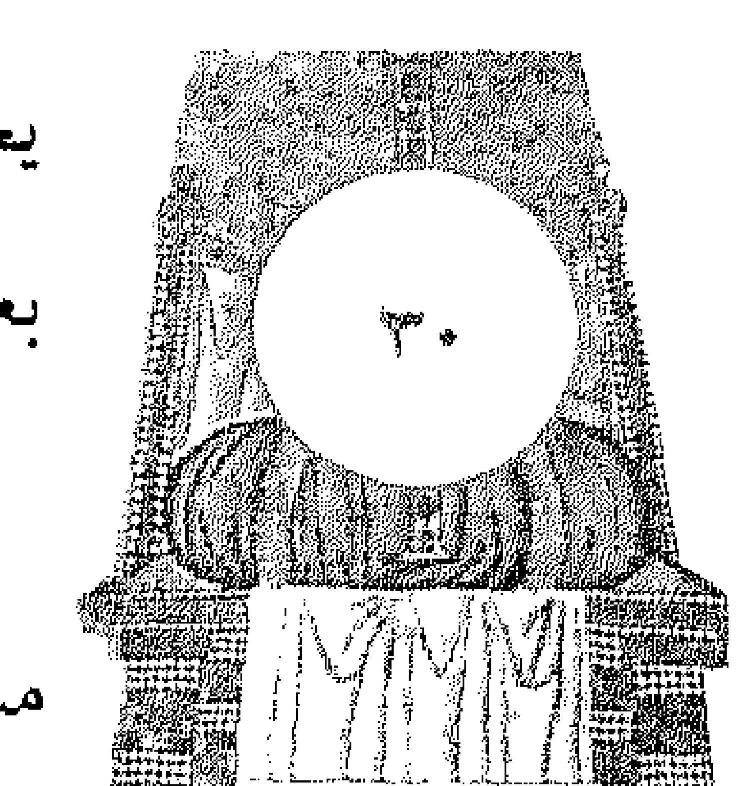
رسم تخطيطى لكنيسة القديس بطرس- روما- التى كان لها السلطة البابوية



ويبدو أن كونراد قد وجد ضالته لإعادة رباط الوفاق مع البابوية فى المشروع الصليبى الجديد، فهو بمشاركته فى ذلك المشروع سيصبح يد البابا اليمنى، وممثلاً للعالم المسيحى فى صراعه مع أعداء المسيحية، ويبدو أيضاً أنه توهم إمكانية استخدام هذا المشروع كستار، يمكنه من ورائه تأكيد حقوقه الإمبراطورية، وأطلق لخياله العنان، فاختلق وهماً وأقنع نفسه به تماماً، فكان حريصاً كل الحرص على استخدام اللقب الإمبراطورى فى مكاتباته الرسمية وإنكاره على الإمبراطور البيزنطى، ففى خطابه ليوحنا الثانى فى فبراير ١١٤٢م، خاطبه بوصفه "إمبراطور القسطنطينية"، وفى خطابه إلى مانويل بخصوص زواجه من شقيقة زوجته الأميرة الألمانية برتا سالزباخ، أصر على أن يخلع على نفسه لقب "أغسطس إمبراطور الرومان الشرعى"، بينما خاطب مانويل بوصفه "ملك اليونان ذو المركز المرموق"، وهو الأمر الذى علّق عليه الباحث أنجولد Angold بقوله: "لاشك أنه كان تبجحاً واضحاً من قِبل الملك الألمانى أن يدعى اللقب الإمبراطورى لنفسه وينكره على غيره".

وبوصف كونراد قائداً صليبياً ووريثاً للّقب الإمبراطورى، لم يكن ينبغى عليه أن يضع اعتباراً لأى اتفاق أو تحالف سابق مع بيزنطة، بل عليه ألا يضع أدنى اهتمام لمطالب ورغبات ملك اليونان، الذى لديه من الوقاحة ما يدفعه إلى تلقيب نفسه إمبراطور الرومان، فنراه يكتب إلى مانويل رسالة تقطر سخرية وتفيض استهزاءً، جاء فيها: "لا تحاول أن تلصق بنا أسباب ذلك الخراب والدمار الذى حلَّ بأراضيك أثناء مرور جيشنا بها ... لأنه عندما يقوم جيش أجنبى بالتجول فى منطقة ما للوقوف على طبيعة أرضها من ناحية، وتأمين احتياجاته الضرورية من ناحية أخرى، من الطبيعى أن تحدث مثل هذه الأمور على أيدى بعض الجنود".

وكما يبدو من هذه الأسطر القليلة، أن "كونراد" كان مصراً على أن الحملة مشروع مقدس لا يجب أن يوضع اعتبار فيه لأية قواعد سياسية، بل على مانويل أن يضع إمبراطوريته تحت تصرفه دون شكوى أو شروط مسبقة، ويتضح ذلك بصورة تامة فى تعنته الواضح إزاء أية نصيحة يقدمها له مانويل، حتى وإن كانت هذه النصيحة فى صالحه، فقد نصحه بعبور مضيق الدردنيل من سيستوس Sestos بدلاً من عبور البسفور من القسطنطينية، ورغم أن طريق الدردنيل كان بالفعل أكثر اختصاراً وصلاحية، إلا أن كونراد رفض هذه النصيحة، وواصل طريقه نحو القسطنطينية لمجرد أنه لم يكن ليقبل بأن يملى عليه الإمبراطور البيزنطى طريقه، وتزداد النعرة الألمانية الإمبراطورية عند كونراد وضوحاً برفضه دعوة مانويل للتفاوض معه فى القسطنطينية، طالباً منه أن



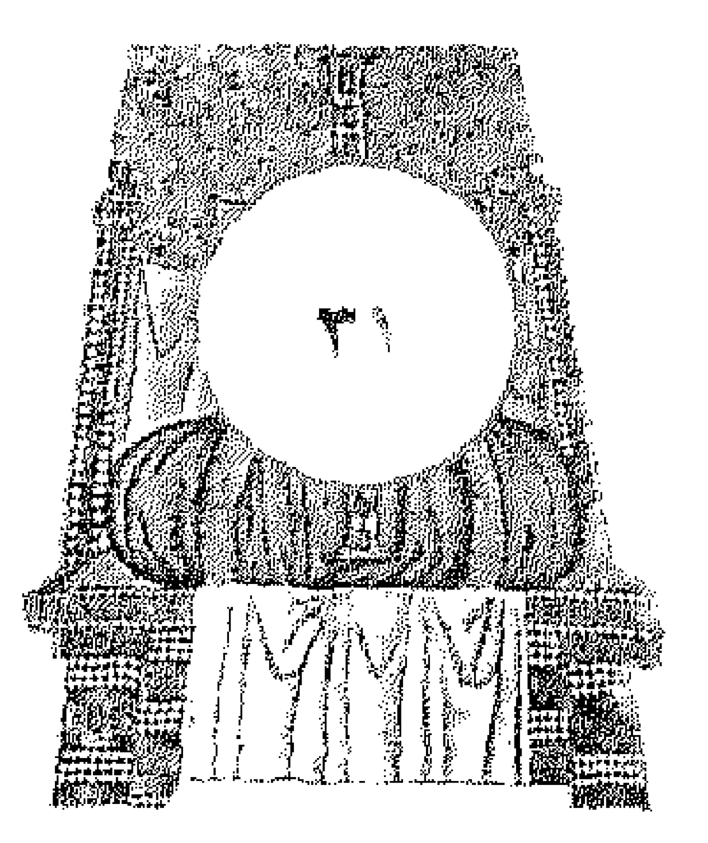
يخرج لاستقباله خارج أسوار العاصـمة؛ ولذلك قُدِّر لهما ألا يلتقيا أبداً إلا بعد هزيمة كونراد على يد السلاجقة فى آسيا الصغرى .

وهكـذا؛ تقمص كونراد، بوصفه إمبراطور الرومان، الدور جيداً على مسرح أحـداث الحملة الصليبيـة الثانية، وبطريقة تنذر بالنعـرة الإمبراطورية العالية النغمة التى دأب على إطلاقهـا أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن اللاحقين، خاصةً فردريك بربروسا، وإذا كان هناك أثر لصوت هذه النـغمة فى رسائل كونراد ليوحنا ومانويل قبل الصليبية الثانية، فقد أصبح صداها مدوياً بمشاركته فى مشروع صليبى مقدس، فهو الآن السيد الأعلى للإمارات الصليـبية، قـدم من الغرب وقد حـمل على عاتقه مـهمة الدفـاع عن المسيحـية الشرقية.

ومما سبق؛ ألم يكن من حق بيزنطة أن تنظر بعين الشك والقلق إلى حـملة كونراد بوصفها حملة عـدائية؟! وألم يكن لديها من المبررات مـا يجعلها تضع أسـوأ التفسيـرات لسلوك الجيش الألمانى وقائده، ولأحداث العنف التى بلغت مداها عند فيليبوبوليس وأدريانوبل؟!

وعلى النقيض تماماً من الجيش الألمانى، كانت مسيرة الجيش الفرنسى أكثر هدوءاً وسلاسة، ربما وقعت بعض حوادث العنف، ولكنهـا لم تتطور أبداً إلى أحداث دموية كالتى صاحـبت عبور الألمان، ولا نكاد نلمح فى المصادر البيـزنطية سواء عند كيناموس أو نيقتـاس الخونياتى: أية إشارة لحدوث توتر فى العلاقة بين مانويل ولويس السابع، والشاهد الوحيد على حدوث مثل هذا التوتر هو أودو الدويلى.

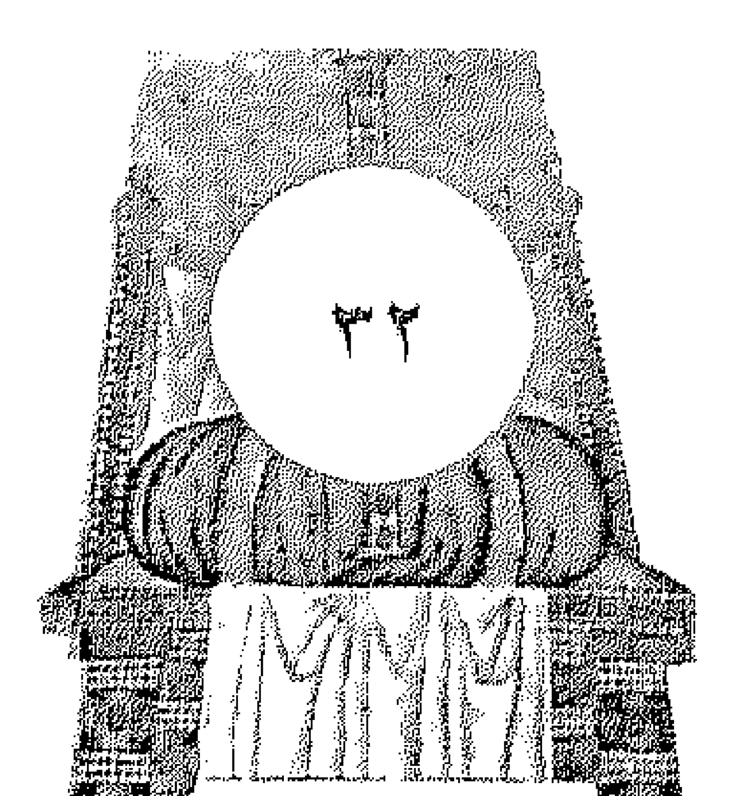
ورغم أن "أودو" كان أحـد الأعضاء البارزين فى الحـزب الفرنسى المعادى لبيـزنطة، وكان متـأثراً فى روايته بالكـوارث التى حلّت بصليبـيى الحملة الثـانية فى آسـيا الصغـرى وعلى أبواب دمشق، والتى ألقى بتبعتها على عاتق بيزنطة، إلا أنه لا ينـبغى استبعاد صدق روايته بصورة تامة، وخاصةً أنه كان لكل من العاهلين البيزنطى والفـرنسى من الأسباب ما يكفى لأن يجعل كلا منهما حذرا من الآخر، فـالملك الفرنسى كان يتـمتع بصلات وثيقـة مع الإمارات الصليبيـة أكثر من أى عاهل أوروبى آخر، ويكفيه أنها إمارات فـرنسية اللغة والطابع، ومن ثمَّ كان أحق من غيره، على الأقل من كونراد الثالث، فى أن يدعى لنـفسه الحق فى كونه السيد الأعلى لمسيحيِّ الشرق، وأن يلقى على عاتقـه مهمة الدفاع عنهم ضـد المد الإسلامى والبيزنطى. كمـا أن حمله للصليب على رأس حملة صليبـية جعله مشاركا فى مشـروع مقدس، فيه كل شىء مبـاح ومتاح من أجل إعلاء كلمة المسيحية ونصرة المسـيح، وتشرب لويس بهذه الفكرة تماماً، وساهمت البابوية بدور وافر فى



إذكاء هذا الشعور، فالملك الشاعر بالذنب والراغب فى تطهير روحه من الدنس الذى حلَّ به من جرّاء إحراقه كنيسة فيترى Vitry فى مقاطعة شمبانى Champgne عام ١١٤٧م، وبها جموع المصلين. وجد فى الصليبية الجديدة فرصة للتكفير عن خطيئته، وتلقفت البابوية رغبته هذه، ونصّبته زعيماً سياسياً وقائداً أعلى للحملة، وراح البابا يوجينيوس الثالث يغمغم فى آذنيه بكلمات تبث فى قلبه الإحساس بالواجب المقدس الملقى على عاتقه، ولم يدعه إلا وقد تشرب بهذا الشعور، فخرج كحاج على رأس رحلة مقدسة لنصرة مملكة بيت المقدس والدفاع عن المسيحية الشرقية وإعلاء شأنها ، ويكفى على ذلك شاهداً أن نقرأ الحديث الذى نقله نيقتاس الخونياتى عن لسان لويس حينما راح يخطب فى جنوده قائلاً: "أيها الرفاق؛ تلك هى معركتنا من أجل المسيح، وذلك هو طريقنا الذى اخترناه لأنفسنا من أجل مجد الرب لا مجد البشر. . وإذا كان المسيح قد مات من أجل خلاصنا، أفليس من العدالة الحقة أن نلقى الشهادة من أجله؛ ولتكن تلك هى جائزتنا فى هذه الرحلة المقدسة" .

ولما كان لويس السابع يرى فى الحملة مشروعاً مقدساً، فقد كان مثل كونراد الثالث يصر على أن لا ينبغى استخدام القواعد السياسية العادية فبها، بل بات لزاماً على مانويل بوصفه حاكماً مسيحياً أن يسهم فى أداء ذلك الواجب المقدس. بوضع إمبراطوريته تحت تصرف الجيش الصليبى دون أية شروط مسبقة، ومن ثمْ كان أقصى ما حز فى نفس لويس القائد الصليبى، وعكّر من صفو رحلته المقدسة، إصرار مانويل على استخلاص تعهدات منه بشأن سلامة أراضيه، وإعادة كافة الأراضى التى قد يستولى عليها فى آسيا الصغرى، والتى كانت تابعة أصلاً لبيزنطة، وفى الوقت الذى رأى أن الطلب الأول حق مشروع لمانويل، عارض الثانى وعمد إلى التسويف والمماطلة مع سفراء بيزنطة الذين استقبلوه على مشارف الإمبراطورية، واعداً بمناقشة ذلك الطلب عند التقائه بالإمبراطور البيزنطى .

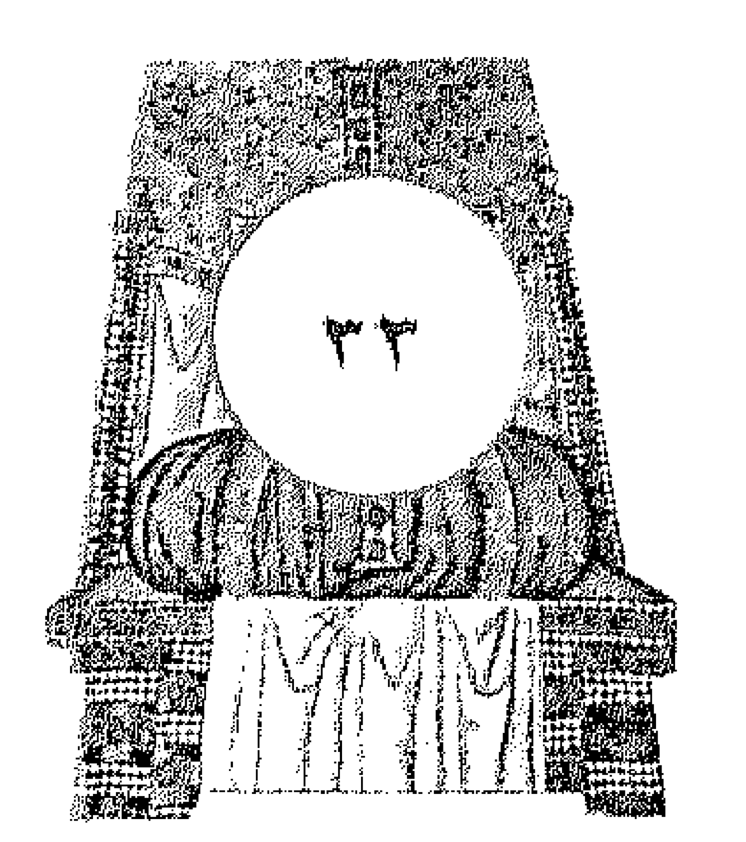
ويبدو أن لويس السابع قد تعمد تأجيل مناقشة هذا الطلب حتى يصل بقواته إلى القسطنطينية، وبذلك يجعل مانويل فى موقف لا يحسد عليه، قد يضطر معه إلى التخلى عن مناقشته، ولكن مانويل، الأستاذ فى فن الدبلوماسية البيزنطية، لم يطرح هذا الأمر مرة ثانية على مائدة النقاش حتى آمن جانبه بعبور القوات الفرنسية إلى آسيا الصغرى، وعندئذ نجح فى الضغط على لويس وأمرائه، ودفعهم إلى الإذعان لمطالبه، وخاصةً أن لويس بات فى وضع يجعله أكثر اعتماداً على المساعدة البيزنطية، فى وقت لم يعد باستطاعته ممارسة أى شكل من أشكال الضغط العسكرى على الإمبراطورية البيزنطية.



هكذا بات واضحا، أنه كان هناك شعور بيزنطى قوى بأن الحملات الصليبية لم تكن موجهة إلى الشرق الإسلامى فقط، بل كانت موجهة أيضا إلى الشرق البيزنطى المسيحى، وإذا كانت كل هذه الأحداث تندرج تحت ما يمكن أن نسميه "حرب غير معلنة" أو حرب غير رسمية"، فإن تطورات الأحداث أثبتت أنه كانت هناك محاولات عديدة، سواء اتخذت طريقها إلى التنفيذ أو ظلت فى إطار المشروع، لإسقاط بيزنطة بدعوى أنه صارت تشكل العدو الأكثر خطورة من العالم الإسلامى، وراح الغرب الأوروبى يضفى شرعية على هذه المحاولات باتهامه بيزنطة بخيانة قضية الصليب والخروج عن دائرة المسيحية، وهى الاتهامات التى سوغت له فى نهاية الأمر افتراسها عام ١٢٠٤م بين أنياب وبراثن صليبى الحملة الرابعة.

رسم من القرن ١٨ لقبر وكنيسة مريم العذراء - فلسطين

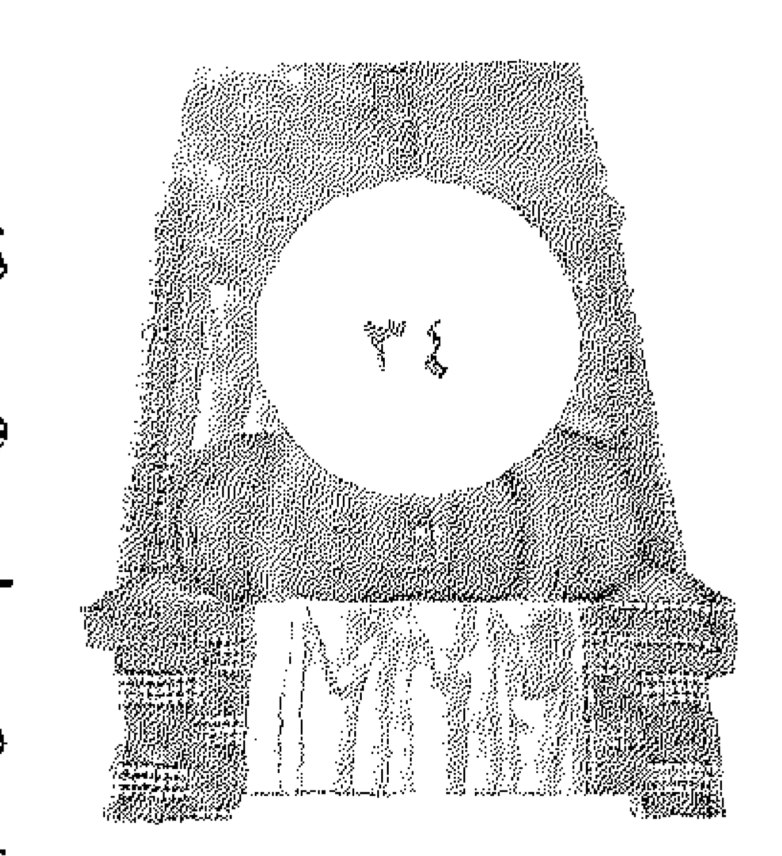
مقبرة السيدة
مريم العذراء



الفصل الرابع
بيزنطة وسقوط قناع القداسة الصليبى

عندما دعى البابا أوروبان الثانى شعوب أوروبا المسيحية إلى الحرب المقدسة لإنقاذ مسيحية الشرق ومعتنقيها ومقدساتها من الاضطهاد الإسلامى المزعوم، ربما لم يجل فى خاطره أن هذه الحرب المقدسة ستوجه سهامها ورماحها إلى إمبراطورية الشرق المسيحية، غير أن تطورات أحداث هذه الحرب جعلت هذا الهدف أثيرا إلى قلوب الغرب وجنوده، وليبرر الغرب التناقض الواضح والبين بين مسمى الحرب وأهدافها، وهو التناقض الذى بدأ يزيح الستار عن عنصرية ودموية واضحة، ويكشف عن زيف قناع "الصليبيات" "المقدسات"، راح الغرب يبحث عن ذرائع وحجج واهية تبيح له افتراس أرض وإراقة دماء مسيحية. مختلقا اتهامات لبيزنطة ومواطنيها بخيانة قضية الصليب والخروج عن دائرة المسيحية.

صورة فوتوغرافية نادرة لكنيسة القيامة
فى القرن التاسع عشر - القدس

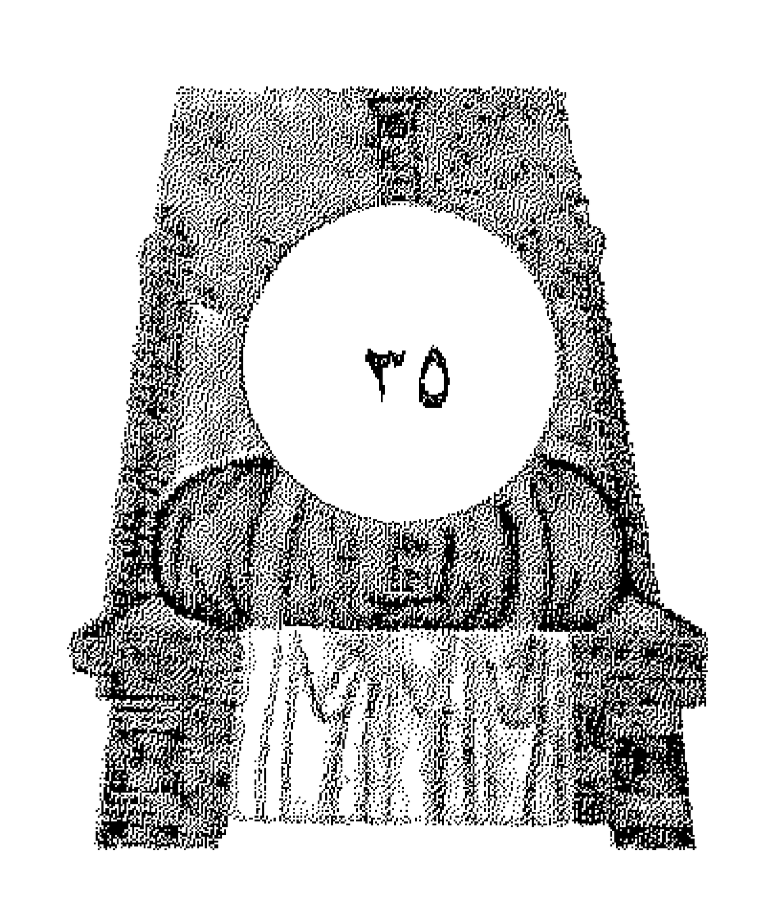


ولقد راح مؤرخو الصليبيات يقومون بدور البوق الذى يردد عن ألسنة قادتهم وملوكهم وباباواتهم ما يعتمل فى صدور الجميع من حقد دفين وكراهية عميقة لكل ما هو بيزنطى، وراحوا منذ اللحظة الأولى لقيام حروبهم "المقدسة" يعلنون عن خيانة وهرطقة البيزنطيين، ويفسرون أى رد فعل يتخذه البيزنطيون وأباطرتهم للحفاظ على أمن وسلامة إمبراطوريتهم أمام همجية وبربرية وفوضوية الصليبيات على أنه دليل واضح وبرهان أكيد على الخيانة البيزنطية لقضية الصليب، ويكفى أن نطالع اللعنات والشتائم التى أنزلها أحدهم، وهو بطرس توديبود، الذى وضع وصفا معاصرا لأحداث الصليبية الأولى، لقد راح الرجل يصف الإمبراطور ألكسيوس بأنه "الشرير" و"الخائن" و"الخسيس" "الدنئ" و. . . ، سلسلة مطولة من النعوت والصفات، Bو بالأحرى وابل من الشتائم لن تكفى الصفحات لحصره، كل هذا لأن الإمبراطور البيزنطى أصر على أن يقتنص من أمراء الحملة الأولى قسما بالولاء والطاعة وتعهدا بعدم الإضرار وإلحاق الأذى بأراضى إمبراطوريته.

ألم يكن من حق أباطرة بيزنطة أن يحصلوا على تعهد الصليبيين وقسمهم؟ ألم يروا بأعينهم دموية الصليبيين، وما قد تحدثه جموعهم الفوضوية من كوارث لإمبراطوريتهم؟ ألم يكن من حق البيزنطيين أن يأمنوا جانب ثلة غوغائية، ويأمنوا على أنفسهم وذويهم فى أراضى إمبراطوريتهم؟

تلك تساؤلات تجيب عن نفسها، ولنتخيل وضعا مماثلا فى حياتنا المعاصرة، أليس من حق دولة العبور أن تحصل من الدولة التى ترغب فى استخدام أراضيها، أو مجالها الجوى، أو قواعدها العسكرية، على ضمانات وتعهدات كافية لحفظ مصالحها وأمنها القومى، تلك أبسط الحقوق التى كفلها العقل والمنطق لبيزنطة، غير أن الأمر كان مختلفا تماما فى أعين الصليبيين، فهم يرون أنهم فى مهمة مقدسة، وأنه على بيزنطة بوصفها إمبراطورية تشاركهم الدين، أن تسهم فى هذه المهمة دون قيد أو شرط، ولذا فسروا إصرار البيزنطيين على الحصول على القسم والتعهد بأنها عراقيل يضعونها فى سبيل إفشال قضيتهم، ولكن هل سألوا أنفسهم ببساطة: هل كان سلوكهم فى أراضى الإمبراطورية المسيحية سلوك إخوة فى الدين؟ وهل كانت مخاوف البيزنطيين منهم بلا مبررات فرضوها هم أنفسهم؟ وهل أقاموا هم أنفسهم اعتبارا لكونهم فى قضية مقدسة، وأن بيزنطة تشاركهم الدين عندما أقدموا على افتراسها؟

ومهما تكن وجهة نظر الغرب الأوروبى والدوائر الصليبية، إلا أن أى منصف لا يستطيع أن يوجه اللوم إلى حاكم أصر على مصالح دولته مجاملة لعناصر لا تكن له أو لدولته أى تقدير أو حتى مودة ظاهرة، ولو فعل الأخيرة لاستحق كل التأنيب من مواطنيه والتاريخ _!! لقد رأت بيزنطة أن القسم الصليبى أمرا حيويا يضمن مصالحها السياسية والقومية، وكان دافعها الأساسى



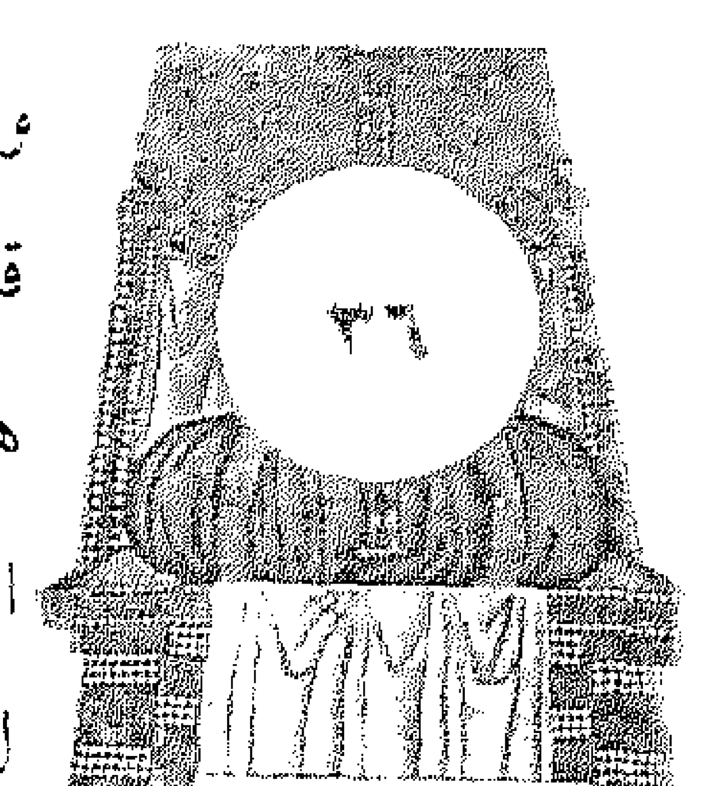
للإصرار عليه، أن أباطرتها وجنودها والناس أجمعين، كانوا على يقين كامل أن الغرب اللاتينى الكاثوليكى يضمر الشر والكراهية تجاه الشرق اليونانى الأرثوذكسى، ويتربص بالقسطنطينية الدوائر، حتى قبل أن تقوم للحرب الصليبية قائمة , وما أسفرت عنه الأحداث طوال هذه الحرب، وامتلأت صفحات المؤرخين البيزنطيين المعاصرين بهذه المشاعر، بل إن اللاتين أنفسهم كانوا يدركون تماما هذه الأحاسيس وهذا التخوف لدى البيزنطيين، ووجد لذلك صداه حتى فى كتابات نفر من المؤرخين اللاتين أنفسهم، فالمؤرخ الصليبى فوشيه الشارترى كتب أن الإمبراطور ألكسيوس رفض دخول الصليبيين العاصمة لأنه "أخشى أن نتآمر عليه ونسبب له الضرر".

ولم يغفر الصليبيون للبيزنطيين أبدا أنهم أنزلوا أمراءهم وملوكهم منزلة التابعين الإقطاعيين لإمبراطور لا يعدو فى نظرهم هرطيقا مارقا عن الدين، وبعد الحملة الأولى، ومع توالى الحملات الصليبية وتتابع خروجها من أوروبا إلى الشرق، راح الصدع بين اللاتين والبيزنطيين يزداد اتساعا، ومع تولى الملوك زعامة هذه الحملات بدلا من الأمراء، تأكدت هذه الشكوك التى ساورت البيزنطيين منذ البداية فى نيات اللاتين، وجاءت تصرفات هؤلاء الملوك الأوروبيين مصدقة لما بين يدى القسطنطينية من هذه الشكوك والهواجس، والغريب فى الأمر أن أوروبا لم تعد تخفى أهدافها الحقيقية وأطماعها فى الإمبراطورية البيزنطية ونياتها العدائية تجاهها، بل أخذ أقطابها يعلنون ذلك صراحة ودون مواربة حتى انتهى الأمر باحتلال القسطنطينية عام ١٢٠٤م على يد جنود الرب فى الحملة الصليبية الرابعة، عندما أسقط الصليبيون الكاثوليك درع المسيحية الأرثوذكسية!!.

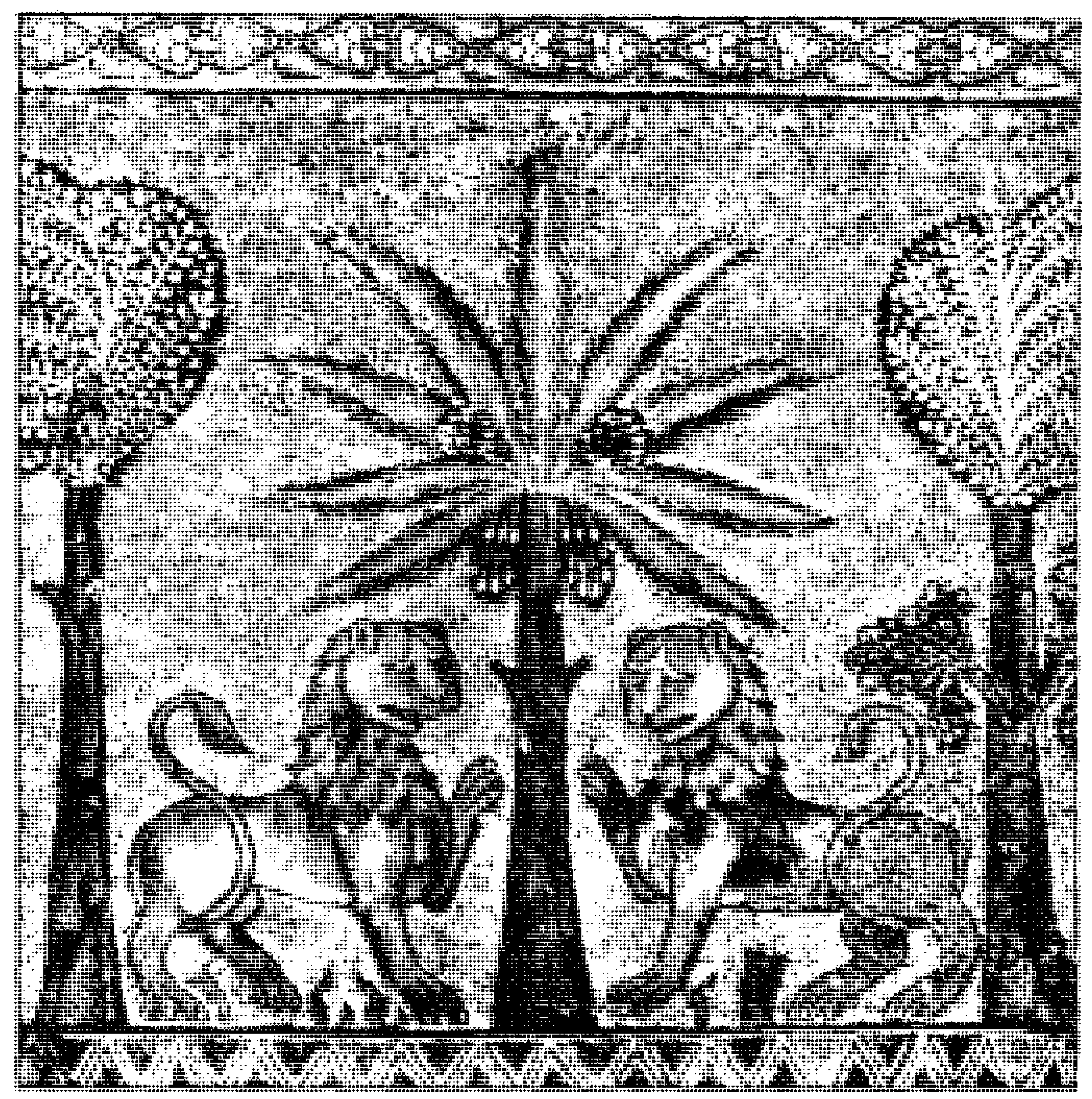


فسيفساء لأحد القديسين كاتدرائية آيا صوفيا- إستانبول

لم يكد يمضى بضع سنوات على الحملة الصليبية الأولى، إلا وقاد الأمير النورمانى بوهيموند حملة شعواء متهما إياها وإمبراطورها ومواطنيها بخيانة الصليب، بدعوى أنها لم تقدم لـ"جند الرب" العون اللازم ليشقوا طريقهم فى يسر وسهولة إلى الأراضى المقدسة، بل تعمدت أن تضع فى طريقهم العراقيل منذ وصولهم إلى أراضيها، ووجد ضجيجه صدى لدى البابوية التى اقتنصت الفرصة أعلنت مباركتها لحملة صليبية جديدة



وجهتها القسطنطينية، وتلقف بوهيموند الكرة من البابوية وراح يطوف أوروبا قاطبة مندداً بسلوك أباطرة بيزنطة، مستثيرا حماسة اللاتين الكاثوليك ضد هؤلاء "اليونان" الهراطقة. وتلقاه الناس فى فرنسا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية بحماس منقطع النظير، ويصف مؤرخ معاصر استقبال الجموع لبوهيموند "كما لو كانت قد خرجت لاستقبال المسيح نفسه"، فهو البطل العائد من الأراضى المقدسة، بعد أن حقق النصر -من وجهة نظرهم- على "أعداء الصليب"، وكانت المحصلة أن قاد بوهيموند حملة صليبية عام ١١٠٧م، تحطمت عند مدينة ديرأخيوم بفضل المقاومة البيزنطية القوية، واضطر بوهيموند إلى عقد صلح مهين أصبح بمقتضاه تابعا للإمبراطور ألكسيوس كومنينوس، مما جر عليه حالة من الاكتئاب النفسى لازمته حتى فارق دنياه وهو حسير سنة ١١١١م.


فسيفساء من قصر الملك النورمانى روجر الثانى

وإذا كانت حملة بوهيموند النورمانى هى أول حرب رسمية معلنة على بيزنطة والبيزنطيين، فإنها لم تكن الأخيرة، بل كانت مقدمة لمحاولات أخرى عديدة قام بها الغرب الأوروبى طوال القرن الثانى عشر، متذرعا بنفس الدعوى وذات عريضة الاتهام، وظهر ذلك جليا وقت الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧م، عندما حاول ملك النورمان روجر الثانى، حفيد بوهيموند ووريث كراهيته العمياء لبيزنطة، أن يستغل هذه الحملة فى توجيه ضربة قاصمة إليها، ينتقم بها لجده ويستعيد هيبة مملكته، والأهم من هذا وذاك أن يحقق ما له فيها من مآرب أخرى.

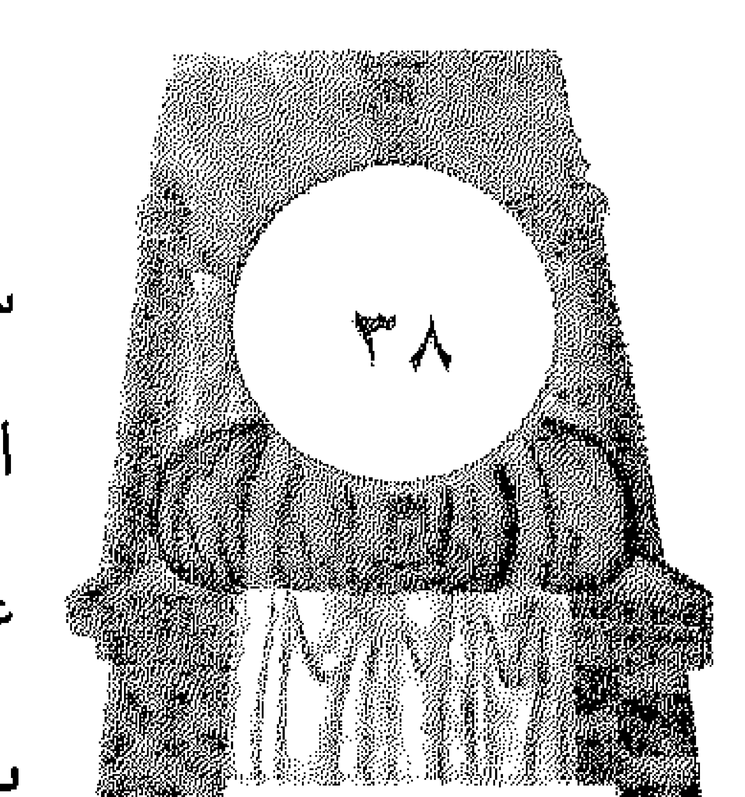
وكان الأمر الأكثر إقلاقاً من وجهة النظر البيزنطية، ذلك الرباط القوى الذى يجمع بين الفرنسيين والنورمان، حيث ظهر بفرنسا حزب قوى معاد لبيزنطة تزعمه أسقف لانجريه Langres جودفرى دى لاروش Godfrey de la Roche، راح ينادى بأن بيزنطة باتت أخطر عقبة أمام أى

نجاح يرتجيه الصليبيون فى الشرق، وأنه إذا أُريد للقضية الصليبية النجاح، فلابد أولاً من توجيه ضربة قاصمة إليها، وكان من الطبيعى أن تتجه أنظار ذلك الحلف إلى التحالف مع روجر الثانى أكثر ملوك أوروبا كرهاً وعداء لبيزنطة، وخاصة أن أسرته الهوتفيل Houtevilles ، أسرة فرنسية الأصل.

ولما كان البلاط الفرنسى هو المركز الرئيسى للدعوة الصليبية الجديدة، فإنه بعد اجتماع فيزيلاى Vézelay فى مارس ١١٤٦م، بدأ لويس مفاوضاته مع حكام الدول التى قد تمر بها قواته فى طريقها إلى الشرق، وسرعان ما واتته الردود المباركة لمشروع الحملة، وكان من بينها رد الملك النورماني روجر الذى انتهز فرصة مكاتبة لويس له، وأرسل سفراءه إلى البلاط الفرنسي للتعهد بدعم مملكته الكامل لقضية الحملة، ليس فقط بتوفير المؤن والعتاد ووسائل النقل، بل بأنه نفسه أو ابنه سيحمل الصليب ويرافق الحملة فى مهمتها المقدسة.

ولا شك فى أن الحملة كانت هدية ثمينة لروجر من كافة الأوجه، فهى من ناحية خلصته من أخطار الاتفاق البيزنطى-الألمانى، حيث إنه سواء اتجه كونراد إلى جنوب إيطاليا تحقيقاً لرغبة البابوية لمساعدتها فى صراعها مع الجمهوريين، فلن يمكنه الاعتماد على مانويل الذى سيكون منهمكاً تماماً فى مراقبة عبور القوات الصليبية أراضيه، وحتى إذا اتجه كونراد صوب الأراضى المقدسة فإنه بذلك سيترك مانويل فى حالة انعزال كامل فى مواجهة القوة النورمانية، ومن ناحية أخرى كان باستطاعة روجر، إذا ما قبل الملك الفرنسى عرضه، أن يتحرك فوق مسرح السياسة الأوروبية كحليف ورفيق سلاح للويس، وعندئذ يمكنه التأثير على خط سير الحملة ونتيجتها النهائية بصورة حاسمة.

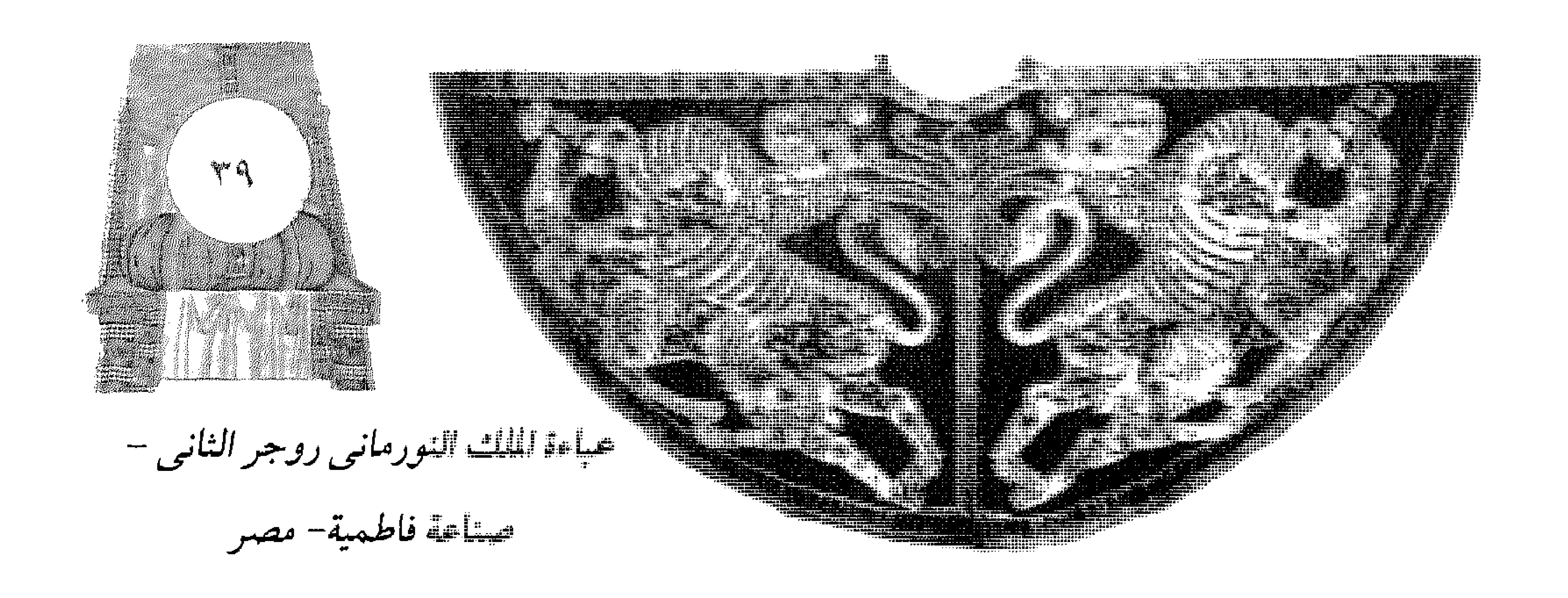
وكان القلق الذى ساد فى دوائر البلاط البيزنطى يتمثل فى إمكانية نجاح روجر فى غايته، حيث إن ذلك قد يتيح له فرصة التلاعب بالحملة وتحويل وجهتها إلى مهاجمة القسطنطينية، وهو أمر يعيد إلى الأذهان ما فعله بوهيموند من قبل عام ١١٠٧م ، ولذلك كان مانويل حريصاً على ألا يفلح روجر فى إقناع الملك الفرنسي بعرضه نقل الجيش الصليبى على متن أسطوله، بل لقد بات عبور هذا الجيش عبر الأراضى البيزنطية أقل شراً بالنسبة له ولإمبراطوريته من نقلهم على متن سفن صقلية، ولذلك راح يبذل قصارى جهده فى سبيل استمالة لويس وإقناعه بفوائد عبور جيشه من الطريق البرى المار بأراضيه، فنجده يرسل إلى لويس رسالة يخاطبه فيها بوصفه "الأخ والصديق المقدس" ، قائلاً له: "إن كانت تلك هى مشيئة الرب، فلتعبر أراضينا، وستلقى منا كافة مظاهر التشريف والتكريم. . واعلم أن رغبتنا تتفق ورغبتك، ولن تجد عائقا أمامك من جانبنا، بل سنستقبلكم بكل السرور والترحاب، وسنمهد لكم الطريق، وستجدنا دائما معكم ضد الأعداء" .



وفى اجتماع إيتامب tampes بفرنسا فى فبراير ١١٤٧م، كان على سفراء بيزنطة خوض معركة دبلوماسية حامية الوطيس مع مبعوثى الملك النورمانى، الذين تلقوا منه تعليمات مشددة بمحاولة تحويل الحملة لصالحه عن طريق استخدام الذهب الصقلى والوعود البراقة لكسب الأنصار، وذلك بالتنسيق مع زعماء الحزب المعادى لبيزنطة ، ولكن كان من حسن طالع بيزنطة أن رفض الملك الفرنسى عروض روجر مفضلاً على ذلك عبور قواته نفس الطريق الذى اتبعه الجانب الأكبر من صليبيى الحملة الأولى، وبطبيعة الحال لم يكن رفض لويس للعرض النورمانى نابعاً عن حب لبيزنطة أو كراهية للنورمان، بل لأن مشاركة روجر فى الحملة بصورة أو بأخرى كانت تتعارض تماماً مع مصالحه، فإلى جانب العداء القائم بين بيزنطة والنورمان، كان لويس يدرك أيضاً أن الأطماع النورمانية فى الشرق الصليبى كانت تثير قلق ومخاوف الأمراء الصليبيين منذ وقت الصليبية الأولى، لاسيما وأن روجر راح يطالب بحقه فى إمارة إنطاكية التى كان يجلس على كرسيها وقتذاك الأمير ريموند دى بواتيه، عم الملكة إليانور زوجة الملك الفرنسى ، هذا بالإضافة إلى أن لويس كان يعى تماماً أن المشروع الصليبى الجديد سيكون محكوماً عليه بالفشل من البداية لو أنه اختار التحالف مع عدو البابوية والإمبراطور الألمانى، شريكاه فى هذا المشروع .

وإذا كان نجاح مانويل فى تجنيب إمبراطوريته خطر قيام تحالف نورمانى-فرنسى، يمكن إدراجه فى سجل الانتصارات للدبلوماسية البيزنطية، وخاصة أن "أودو الدويلى" يشير إلى بلاغة السفراء البيزنطيين وأسلوبهم الحصيف فى إدارة دفة المفاوضات، إلا أنه أثار التوقعات بين الفرنسيين، الذين حينما تخيب آمالهم، سيؤدى ذلك حتماً إلى الندم على عدم تعاونهم مع الملك النورمانى، والالتفات إلى تحذيراته المتكررة من الخيانة البيزنطية، وهو الأمر الذى عبَّر عنه أودو الدويلى بوضوح حينما نقل عن لسان السفراء النورمان قولهم بأن الفرنسيين سرعان ما سيندمون على رفضهم عرض مليكهم بمجرد أن يجربوا الخيانة البيزنطية، ولعلنا نستطيع الربط بين ذلك وبين ما حدث أثناء وجود الجيش الفرنسى خلف أسوار القسطنطينية، حينما راح الحزب المناوئ لبيزنطة به ينصح الملك الفرنسى بمهاجمة القسطنطينية براً، ومراسلة الملك النورمانى الذى كان وقتذاك يهاجم سواحل بيزنطة الغربية للاستعانة به فى مهاجمتها بحراً .

وكان الأمر الأكثر خطورة من وجهة النظر البيزنطية، والذى كان له نصيب الأسد فى إثارة الشكوك والمخاوف البيزنطية تجاه نوايا صليبىّ الحملة الفرنسية، ذلك الرباط القوى الذى جمع بين الفرنسيين والملك النورمانى روجر الثانى، وحتى إذا كان الملك الفرنسى قد رفض العرض النورمانى بنقل الجيش الفرنسى على متن السفن الصقلية، إلا أن مباحثات الطرفين فى حد ذاتها كانت كفيلة



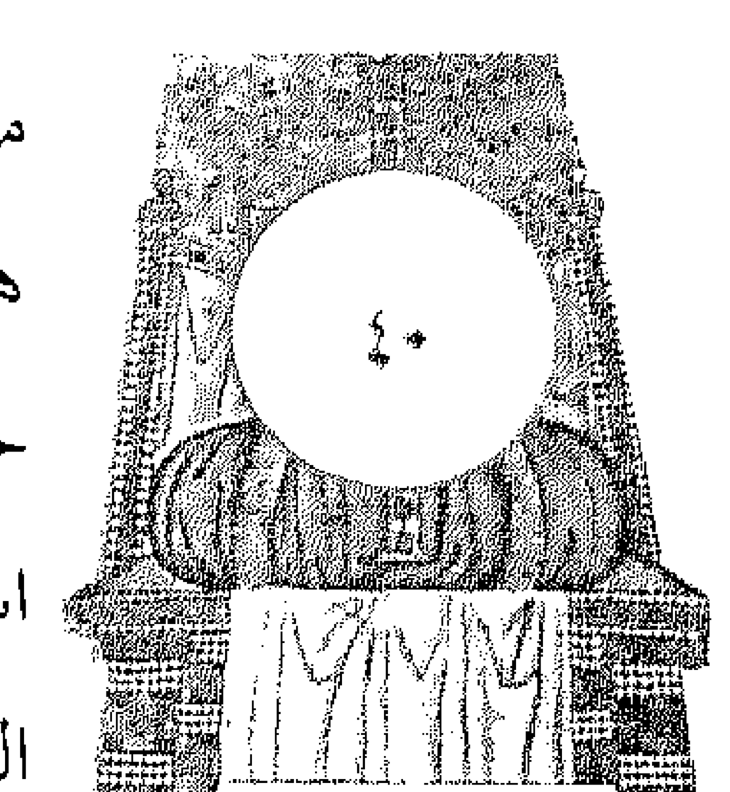
عباءة الملك النورمانى روجر الثانى - صناعة فاطمية- مصر

بأن تثير حالة من الانزعــاج والقلق فى دوائر بيزنطة الحاكمة، وخاصةً أن عـدداً كبيراً من بارونات الجيش الفرنسى الحاملين لبطاقة العضوية فى الحزب المعــادى لبيزنطة، كانوا مؤيدين بشدة للتحالف مع الملك النورمانى، بل إن جانباً كبيــراً من الجيش الفرنسى اتخذ طريقه إلى أبوليا Apulia ومنها شرع فى رحلته إلى الشرق عبر البحر الأدرياتى .

وجاء سلوك الجـيش الفرنسى وقائده ليـزكى من نيران الشكوك والمخـاوف البيزنطيـة، فمنذ اللحظة الأولى لدخول الملك الفرنسى الأراضى البيزنطية وهو يتبنى موقفاً متصلباً تجاه أى عرض أو نصيحة يقدمهــا الإمبراطور البيزنطى، فإلى جانب مماطلته فى الطلب البيــزنطى الخاص بإعادة كافة الأراضى التى استولى عليها السلاجقة فى آسيا الصغرى، رفض كذلك اقتراح مانويل الخاص بعبور الدردنيل بدلاً من البسفور، وهو الاقتراح الذى رفضه كونراد من قبل، وأصر على المُضى قدماً فى طريقه إلى القسطنطينية وكأنه يضمر فى قرارة نفسه أمراً مخيفاً .

والأهم من ذلك؛ أنه كان ثمة شـعور قوى ساد بين صفوف الجـيش الفرنسى مؤداه، أنه لا يمكن وضع البيزنطيين فى عداد المسـيحيين الحقيقيين، بل ينبـغى قتلهم دون تأنيب ضمير، وراح الحزب المعادى لبيزنطة تحت قيادة جودفرى دى لاروش يُروِّج لفكرة الهجوم على القسطنطينية، إذ يكشف لنا أودو الدويلى، لسان حـال هذا الحزب والمتحدث الرسمى عنه، عن المجـهودات المضنية التى بذلهـا أعضــاؤه من أجل إقناع مليكهم بتلك الفكـرة، فيـخبـرنا بأنه كان فى مـجلس الملك العسكرى من اقترح مهاجـمة الأراضى البيزنطية الثرية والخصبة، والاستيـلاء على مدنها وقلاعها، ومكاتبة الملك النورمانى الذى كان وقـتذاك يهاجم سواحل بيزنطة الغربية بكل ضـراوة، للاستعانة بأسطوله فى مهاجمة القسطنطينية.

وعلى أبواب القـسطنطينيـة، راح جودفـرى يلح على لويس فى ضـرورة الاسـتيـلاء على القسطنطينية، مبرراً ذلك بأنهـا مدينة ليس لها من المسيحية إلا اسمهـا فقط، وأن إمبراطورها تجرأ



منذ سنوات قليلة مضت على مهاجمة أمير إنطاكية الصليبي-ويقصد بذلك هجوم الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني على إنطاكية عام ١١٣٧م-وأن حاكمها الحالي "وريث هذه الجريمة المخزية، لايزال يحتفظ لنفسه بأملاك استولى عليها أبوه بالعدوان، بل ويحدق بشراهة عارمة في بقية الأراضي التي رغب أبوه في التهامها، ونجح في انتزاع قسم الولاء من أميرها، ونصب على المدينة بطريركا من قبله، محتقرا بذلك بطريرك القديس بطرس"، ويعلق الباحث الروسي زابوروف على ذلك الاقتراح بقوله: "إن هذا الأسقف الورع لم يأبه إطلاقا لكون بيزنطة دولة مسيحية، بل راح رجل الأخلاق المقدسة والبالغ الحكمة، كما يصفه أودو الدويلي، يتفنن إلى أقصى مدى في اختلاق الأدلة على أن فتح العاصمة البيزنطية لن يلحق بقضية الصليب أدنى ضرر، وأن فتح القسطنطينية بات عملاً لا يناقض المسيحية في شيء".

هكذا وجدت بيزنطة نفسها في موقف عصيب لا يمكن أن تحسد عليه، ولنتخيل ما كان يمكن أن يحدث إذا استجاب الملك الفرنسي لهذه المقترحات، وسعى إلى الاستيلاء على القسطنطينية من خلال حملة فرنسية-نورمانية مشتركة، يحاصرها فيها الجيش الفرنسي برا والأسطول النورماني بحراً: ألم يكن من المحتمل أن تتحول سهام الحملة بأسرها إلى مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية؟! فيتحقق بذلك حلم روجر الثاني الأثير إلى قلبه، والذى ورثه عن أجداده، وتستجيب السماء لرجاء جودفرى دى لاروش حينما راح يخاطب ملكيه قائلاً: "أي سيدى؛ ذلك هو قرارك، فإما أن تترك رجلاً- يقصد الإمبراطور البيزنطي- يهدد أمن الصليب وقبر المسيح، أو تسعى إلى تدميره، فيزول من الوجود كل عدوان عليهما".

ويبدو أن مانويل كان على دراية بما يدبر ضده من قبل أعدائه في المعسكر الفرنسي، فأخذ يسعى جاهداً إلى كسب ود وصداقة لويس، أو على الأقل إلى السيطرة على الوضع والحيلولة دون استجابة الملك الفرنسي لمقترحاتهم، فتلقاه أثناء زيارته للقسطنطينية بحفاوة وتكريم بالغين، وأصطحبه في جولة عبر شوارعها لمشاهدة مزاراتها الدينية وآثارها المقدسة، بل والأكثر من ذلك، انتهز فرصة حلول يوم عيد القديس دني الفرنسي "St. Denis"، وأعدَّ احتفالاً مهيباً بهذه المناسبة، كما أرسل موكبا من كبار الأساقفة البيزنطيين إلى المعسكر الفرنسي خارج أسوار العاصمة لمشاركة الجنود الفرنسيين الاحتفال بهذا العيد، ومنذ الوهلة الأولى مسَّ جمال إنشاد هؤلاء الأساقفة وروعة ثيابهم قلوب الفرنسيين، حتى المتطرفين منهم، وترك انطاعا إيجابيا ظلّ في نفوسهم لسنوات عديدة، وقد أوقعت حفاوة مانويل وكرم ضيافته للملك الفرنسي، المؤرخ الفرنسي أودو الدويلي في حيرة من أمره، فراح يعبر عن حيرته تلك بقوله: "لا يستطيع المرء فهم أولئك البيزنطيين دون أن يكون قد عاشرهم أو يكون موهوبا بإلهام تنبؤي"، ولكنه عاد مرة أخرى يؤكد

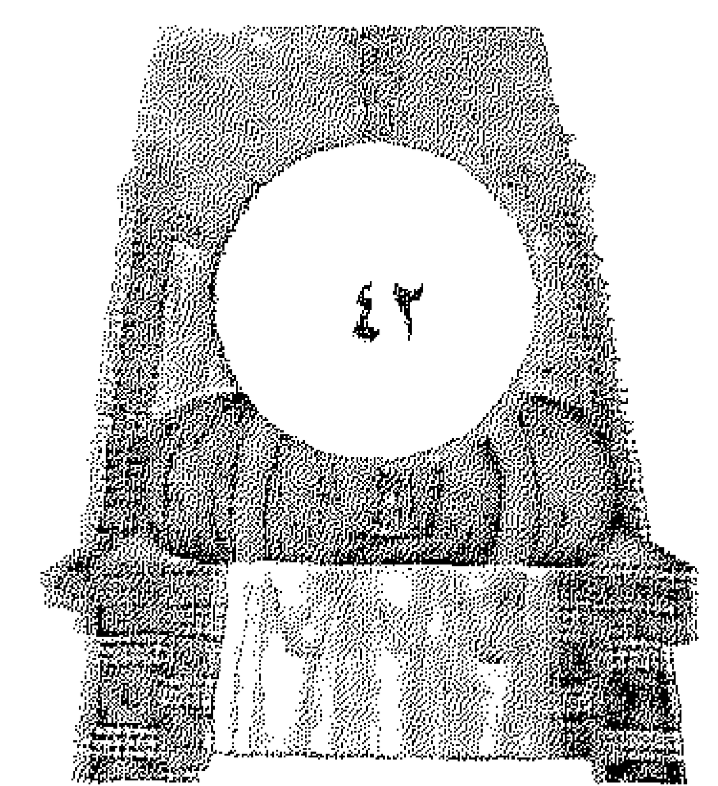
على خيانة وغدر البيزنطيين، مستعيراً عبارة الشاعر الروماني فرجيليوس Vergilius : "إننى أخشى الإغريق حتى وهم يحملون الهدايا".

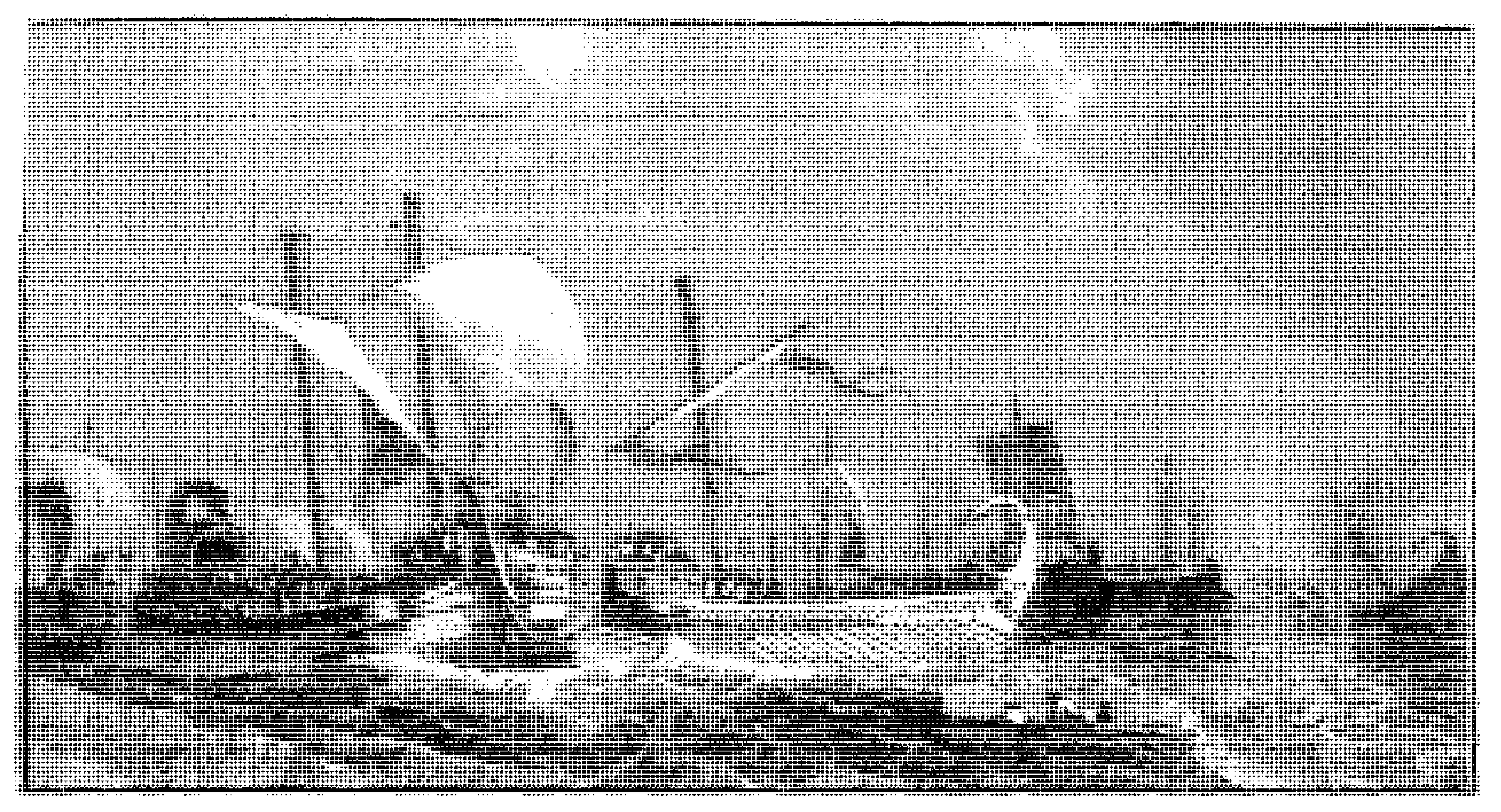
وربما كان الوجه الأكثر قبحاً لهذه الصليبية فى الأعين البيزنطية، هو أنها أتاحت للملك النورمانى الفرصة لشن هجوم مدمر على سواحل بيزنطة الغربية، حيث نتج عن انشغال مانويل بمراقبة تحركات الصليبيين داخل أراضى إمبراطوريته، أن أصبحت الجزر اليونانية وسواحل البحر الأدرياتى مكشوفة أمام النورمان، ولم يدع روجر الثانى هذه الفرصة تضيع من يديه، بل أرسل أسطولاً قويا فى صيف عام ١١٤٧م، استولى على جزيرة كورفو Corfu وكيفالونيا Cephalonia ، ثم دار حول السواحل الغربية والجنوبية وشنّ هجوماً فاشلاً على مونيمفازيا Monemvasia داخل بحر إيجه، التى استعصت عليه نتيجة لاستماتة سكانها فى الدفاع عنها، ومن ثمّ فقد عاد الأسطول النورمانى من نفس الطريق، وأبحر داخل خليج كورنثة Corinth ، حيث نهب وخرّب أراضى بيزنطة الغنية فى كورنثة وإيوبيا Euboea وطيبة، فلم يترك شيئاً إلا وحمله معه إلى صقلية، حتى أن نيقتاس الخونياتى يعلق على ذلك بقوله: "إذا شاهد المرء تلك السفن الصقلية وقد تكدست بأكوام من الأشياء الثمينة لدرجة جعلتها تغوص فى الماء حتى المجاديف، لن يخطر بباله أنها سفن قراصنة، بل سيظن بأنها سفن تجارية تحمل على متنها سلعاً من كل نوع."، ولكن لما كانت جزيرة كورفو تتمتع بأهمية استراتيجية خاصة، لتحكمها فى مدخل البحر الأدرياتى، فقد حرص النورمان على الاحتفاظ بها واستغلالها كقاعدة يتم من خلالها تهديد جزر وأقاليم بيزنطة اليونانية بصفة مستمرة.

وتنعكس خطورة الوضع الذى باتت بيزنطة عليه فى المنشور الذى أرسله مانويل إلى كافة كنائس وأديرة الإمبراطورية عقب الهجوم النورمانى مباشرةً، حيث جاء به: "إن جلالتنا، فى محاولة لصرع عدو المسيحية كافة، ذلك التنين الغربى الذى اغتصب أراضينا فى إيطاليا، وزحف منها خلسة لمهاجمة أرض الرومان، أناشد صلوات الأساقفة والرهبان فى الكنائس والأديرة، التى هى بالنسبة لنا أبواقاً روحية، أن تساعدنا فى تدميره".

وكانت معظم الشواهد تشير إلى أن هناك تحالفاً سرياً يجمع كلاً من لويس السابع وروجر الثانى على طريق واحد، نهايته الاستيلاء على القسطنطينية، وكان توقيت الهجوم النورمانى كفيلاً بأن يثير شكوك بيزنطة تجاه نوايا الملك الفرنسى الذى كان جيشه يعسكر خارج أسوار العاصمة، فهل كان هناك بالفعل تحالف من هذا القبيل؟ وهل كان لويس السابع يضمر فى نفسه رغبة الاستيلاء على القسطنطينية؟

لا يوجد بين المصادر المعاصرة للحملة سواء البيزنطية أو اللاتينية، مصدر واحد يشير إلى أن روجر الثانى كان يتصرف فى إطار تحالف رسمى أو شبه رسمى مع القوات الصليبية، بل كان لويس السابع منذ البداية يسير فى اتجاه مغاير تماماً لاتجاه الملك النورمانى، فقد رفض عروضه

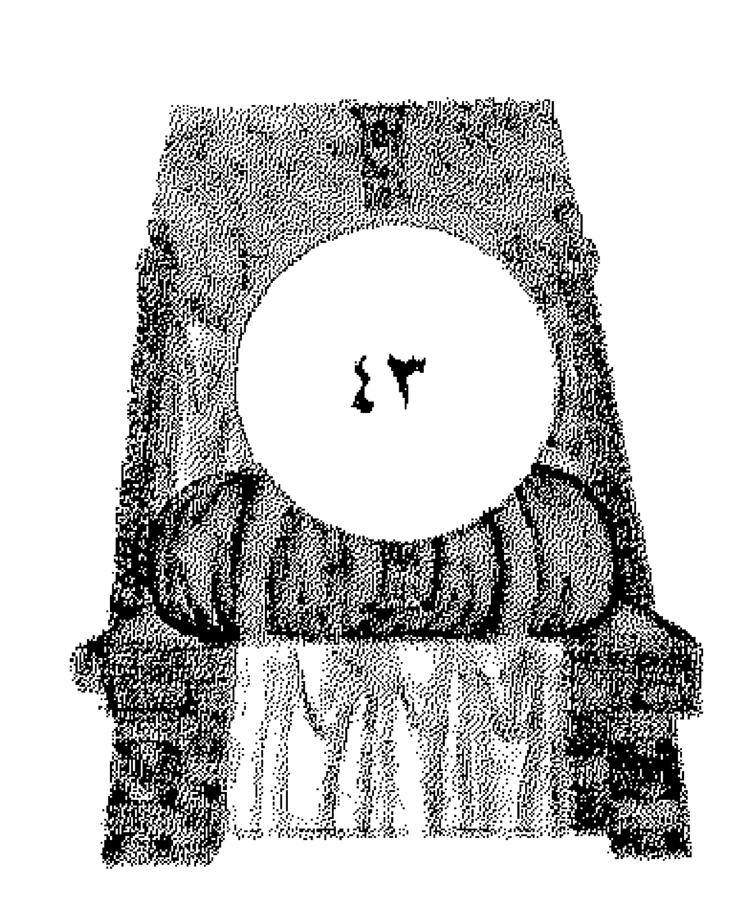




معركة حربية بين *الصليبيين*

بالمساعـدة ونقل القوات الفرنسـية على متن سـفن صقلية، بل وتجـاهل أيضاً، ولأكثـر من مرة، المقترحات التى أثارها بعض قادة جيشه بشأن التحالف معه لشن هجوم مشترك ضد القسطنطينية ، ولا شك فى أن ما منع لويس من الهجوم على العاصمة البيزنطية لم يكن مانعاً أخلاقياً، وإنما لأنه كان يعى تماماً أن دخوله حربا مع بيزنطة أمر غير مأمون العواقب، قد يعرض حملته الصليبية التى كانت محور اهتـمامه الرئيسى للفشـل، وربما أنه أدرك كذلك أن فـرص نجاح هجوم صليبى على القسطنطينية، حتى وإن شارك فيه الأسطول النورمانى، ضعيفة.

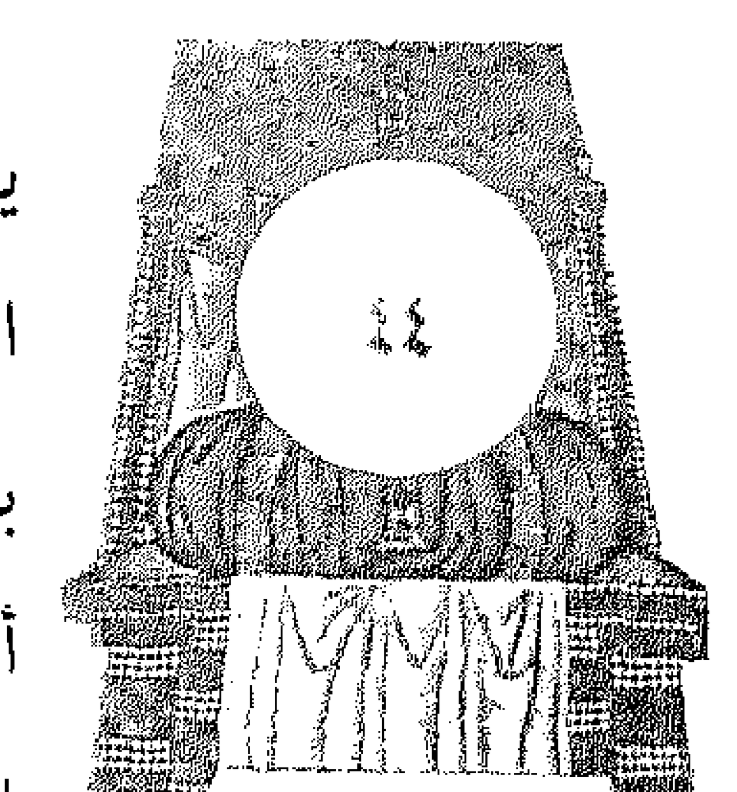
أسوار القسطنطينية التى تطل على البسفور



وعلى ذلك ربما كان من الخطأ القول- كما تعتقد هسّى- بأن لويس وروجر كانا يشغلان نفسيهما بالنقاش حول الرغبة فى الاستيلاء على القسطنطينية كنوع من فتح الشهية لوجبتهم الدسمة التى سوف يلتهمونها فى الشرق ، ومع ذلك كان لبيزنطة من المبررات ما يمنحها الحق للاعتقاد فى عكس ذلك، وما يسوغ لها الحق فى شكوكها تجاه الجيش الفرنسى وقائده، أفلم يتفاوض لويس مع روجر قبل تحرك الحملة؟! وألم يتخذ جانب كبير من الجيش الفرنسى طريقه إلى الشرق عبر أبوليا؟! ألم يواصل لويس طريقه إلى القسطنطينية رغم نصيحة مانويل له بعبور الدردنيل؟! ألم يقترح بعض قادة الجيش التحالف مع روجر فى هجوم مشترك ضد القسطنطينية؟! ألم يتواكب هذا الاقتراح مع هجوم روجر على سواحل بيزنطة الغربية؟! وعلى الأقل. . ألم تكن هذه الأمور فى حد ذاتها كفيلة بأن تظهر كيف يمكن أن تتحول حملة صليبية بسهولة إلى تحالف يجمع ملوك الغرب ضد بيزنطة، الأمر الذى يهدد أمنها وسلامة أراضيها، بل ونظام الحكم ذاته؟!

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحملة الصليبية الثانية وقائديها الألمانى والفرنسى مثّلا عبئاً وخطراً لا يمكن احتمالهما من قبل بيزنطة، وكان لدى مانويل ما يكفى من المبررات والأسباب لأن

قلعة دمشق التى صدت هجمات الصليبيين



يشك فى نواياهم، وما يسوغ له إقدامه على اتخاذ الكثير من الاحتياطات الأمنية والعسكرية للحفاظ على أمن وسلامة إمبراطوريته، وتمسكه الشديد باستخلاص تعهدات وضمانات من ملكي الحملة بالمرور السلمى عبر أراضيه، وبإعادة الأراضى التى قد يستولى عليها الصليبيون فى آسيا الصغرى، والتى كانت فيما مضى جزءٌ لا يتجزأ من أراضى بيزنطة، كما كان لدى المواطنين البيزنطيين من الشكوك والمخاوف ما يكفى لأن يجعلهم ميالين إلى الحذر فى تعاملهم مع الصليبيين، ولأن يغلقوا أبواب مدنهم وقراهم أمام وجوههم، ويبيعوا لهم ما يحتاجون إليه من طعام بإدلاء السلال المربوطة بالحبال من فوق الأسوار.

ولم ينقض التهديد المباشر للحملة إلا بعبور الجيشين الألمانى والفرنسى مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى، ولم يكن ذلك العبور فى حد ذاته بالأمر اليسير، بل وجد مانويل صعوبة بالغة فى إقناع قائدى الحملة بذلك، فكونراد الثالث لم يعبر البسفور إلا بعد أن اضطر مانويل إلى استفزاز جانب من الجيش الألمانى، حيث دارت رحى معركة تكبد فيها الألمان الكثير من الخسائر. أما لويس السابع فقد عمد إلى المماطلة والتلكؤ حتى اضطر مانويل إلى ترويج شائعة بأن الألمان حققوا نصراً ساحقاً على الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى، وأنهم يستعدُّونا لغزو سلطنة قونية، وعلى ذلك أسرع الفرنسيون بعبور البسفور طمعاً فى مشاركة الألمان مجد النصر وغنائمه، وبصرف النظر عن مدى مصداقية أودو الدويلى فى روايته هذه، فهى بلا شك تشير إلى مدى الخطورة التى كان يشكِّلها الفرنسيون على أمن القسطنطينية.

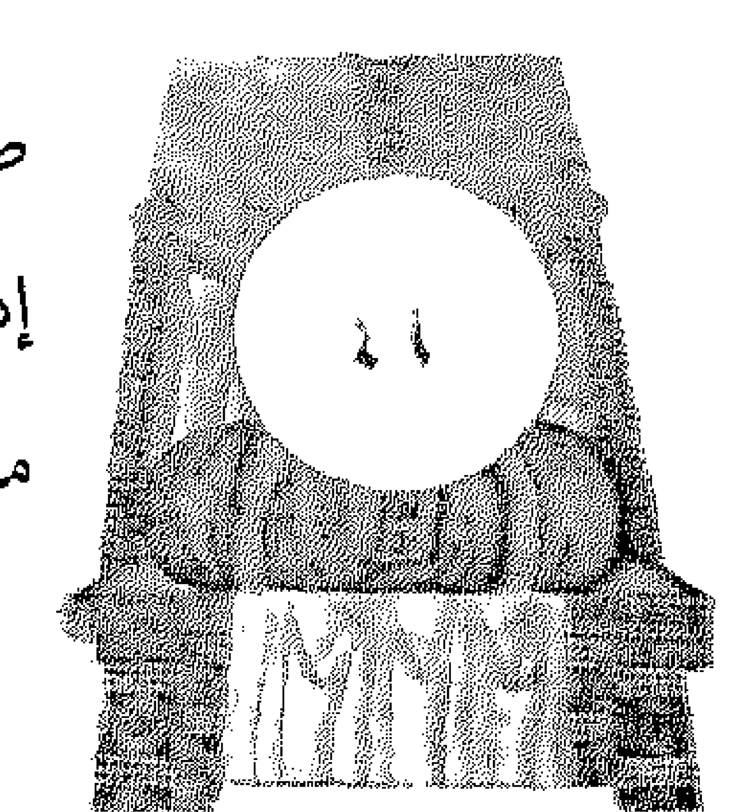
وعلى أبواب دمشق أُسدل الستار على نهاية موحشة لحملة خرج جنودها وقد عزموا على القتال ليس فقط ضد أعداء الصليب، بل كذلك ضد أصدقاء مسيحيين. أما قائداها، اللذان حملا الصليب وكلهما نهم فى إحراز السيادة والسيطرة على شئون العالم المسيحى، عادا إلى الغرب دون أن يحققا شيئاً سوى المذلة والانكسار، ويحملان فى يديهما راية الهزيمة.

وكان أمر طبيعى أن يهرع الغرب اللاتينى للبحث عن كبش فداء تُلقى على عاتقه مسئولية الإخفاق التراجيدى لهذه الحملة، ووجد ضالته- كالعادة- فى بيزنطة المهرطقة وإمبراطورها المنشق، وباتت بيزنطة فى قفص الاتهام بدعوى خيانة القضية الصليبية، ولم لا وهى لا تمت للمسيحية بصلة إلا باسمها، ومواطنوها لا يمكن وضعهم فى عداد المسيحيين الحقيقيين، وإنما ينبغى قتلهم بضمير هانئ، وراح أودو الدويلى يصم بيزنطة وقائدها بالخيانة، ويخاطب عاصمتها قائلاً: "أيتها القسطنطينية، كم أنت متعالية بثرائك، غادرة فى سلوكك، مهرطقة فى إيمانك. وبينما أنت تخشين على نفسك ممن حولك من الطامعين فى هذا النعيم الذى فيه ترفلين، تثيرين الجميع ضدك

لخيـانة تجرى فى عروقك، وفسـوق عليه تعيـشين !! آه لو لم تكن لك كل هذه الرذائل، لغدوت أجمل مكان فى الدنيا كلها".

وتعالت الصيحات فى الغرب بضـرورة الانتقام من بيزنطة التى غدت العدو الأول والأكثر خطورة على قضية الصليب، وحمل رجال الكنيسة على عاتقهم مهمـة الدعوة إلى حملة صليبية مقدسة توجـه سهامها هذه المرة إلى بيزنطة، وقرّ فى أذهانهم أن الملك النورمانى بما يتسم به من كراهية شديدة للبيزنطيين هو الشخص المؤهل لقيادة هذه الحملة، فكتب مستـشار الملك الفرنسى شوجير Suger مقدم دير القديس دنى St. Denis رسالـة إلى روجر الثـانى جاء فـيهـا: "إن قلوبنا تتوق إليك لكى تضـع حداً لخيـانة البيزنطيين الأخساء وحاكمهم البـغيض إلى قلوب حجاجنا، فلتنهض لمساعدة شعب الرب، ولتثأر لكرامتـه من كل إهانة لحقـت به"، كما أرسل القـديس برنارد St. Bernard مقـدم دير كليـرفو Clairvaux رسالة إلى الإمبراطور الألمانى، يمتدح فـيها الملك النورمانى الذى لم يعد هناك غنى عن مساعدته فى كثير من شئون الكنيسـة الكاثوليكية، والذى سيصبح أكثر إفادة لو شارك فى الثأر لقضيـة الصليب من خيانة البيزنـطيين ، وراح بطرس الوقور Peter The Venerable مقدم دير كلونى Cluny، الذى كان يعتبـر بيزنطة قبل الحملة حصن العـالم المسيحى المنيع، ووصف مكانة القسطنطينية بين مـدن العالم المسيحى، بكلمات تروق لأى بيزنطى، حـينما قال: "تلك هى المدينة الواقـعة فى ملتـقى الشرق والشـمال والغـرب، لتـرهـب الشرق، وتخـضع الشمـال، وتزود عن الغرب". راح يكتب بعد إخـفاقها إلى روجر الثـانى رسالة، موضوعها الخـيانة البيزنطية وغـايتها حث الملك النورمانى على الثأر لكرامة المسيح.

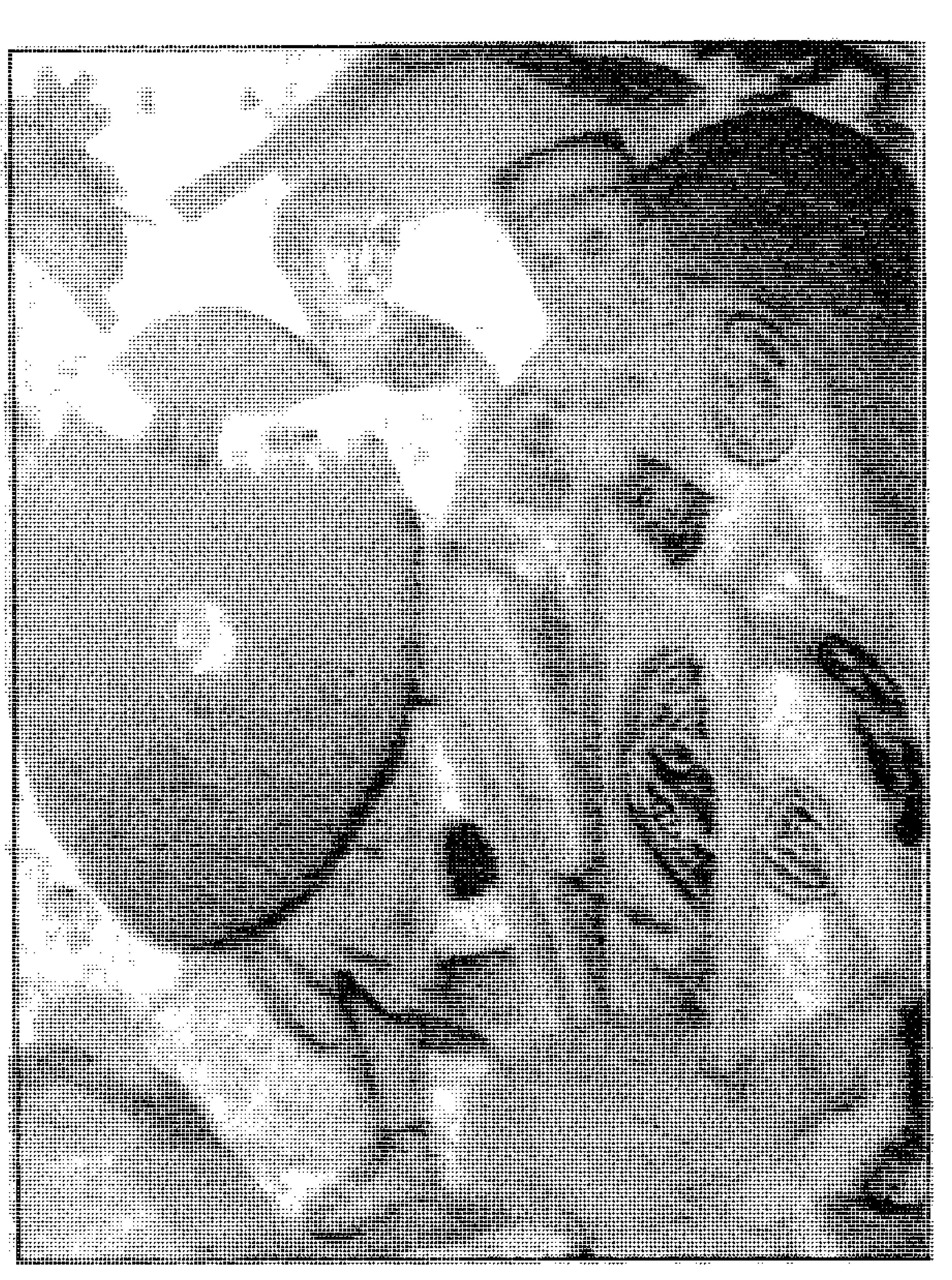
هكذا باتت بيزنطة خائنة فى نظر الدوائر الكنسية اللاتينية، وراح شوجر وبرنارد وبطرس بما لهم من تأثير قوى على الرأى العام الغربى، وبصفتهم قادة الكنيسة الكاثوليكية، يدعون إلى حملة صليبية مقدسة، واضعين آمالهم فى روجر الثانى لحمل رايتها وصليبها، وتناسوا أن روجر نفسه قد خان قـضية الصليـب منذ قليل عندما استـغل عبـور صليبى الحملة الثـانية لأراضى الإمـبراطورية البيزنطة، وهاجم سواحلها الغربية دون اعتبار لمشاركـتها فى مشروع مقدس، كما تناسوا أن الحملة ذاتها قد حادت عن طريقها المرسوم وهجرت مهمتها الأساسية، عندما راح بعض جنودها يتحرقون شوقاً لالتهـام القسطنطينية بعد أن آتوا على الأخضر واليابس وهم فى طريقـهم إليها. وتناسوا كل هذا ولـم يتذكروا سوى شـيئ واحد هو الخيانة البيزنطيـة، فهل كانت بيزنطة بالفعل خـائنة لقضية الصليب، وحاملوا هذا الصليب أنفسهم يتحينون الفرص للانقضاص عليها؟! وهل يمكن أن يلام مانويل، وشأنه فى ذلك شأن أى حاكم فى أى عصر، يسـعى بكل ما أوتى من سبل لحماية دولته من الأخطار التى تتهددها؟! ، تلك تساؤلات تجيب عن نفـسها لسبب بسيط، هو أنه لم يكن فى



صالح بيزنطة أو حاكمها أن تفشل أية حـملة صليبية من جراء فعل بيزنطى، إذ ستكون النتيجة الطبـيعية لهذا الفشل، قيام حملة صليبـية جديدة للانتقام من الإمبراطورية البيزنطية.

وعلى ذلك لم تجن الحـملة المقدسـة التى دعا إليـها القـديس برنارد، وباركها الجالس على الكرسى الرسولى فى رومـا سوى ثمار الكراهية والحقد الدفين بين عالمين متباعدين أشد التـباعد، العالم البيزنطى والعالم اللاتينى، فكل منهـما خـرج من هذه التـجربة القـاسيـة وقد قـرّ فى ذهنه فكرة مـحـددة تشـرّب بهـا وسعى إلى تنفيذها على أرض الواقع، فبـيزنطة التى قاست الآمرين فى هذه التجـربة، خرجت منهــا وقـد أدركت أن الخطر كل الخطر يأتيـها من جهة الغرب اللاتينى الذى بات يلقى بناظريه على أراضـيـهـا بغـيـة التهامهـا، وأنه لا سبيل لبـقائهـا إلا فى شحـذ أسلحـتـهـا العـسكرية والدبلـومـاسـيـة فى مواجـهة هذا الخطر.. أما الغـرب فقـد خرج من هذه الحملة بنتيجة

كاتدرائية القديس بطرس - روما

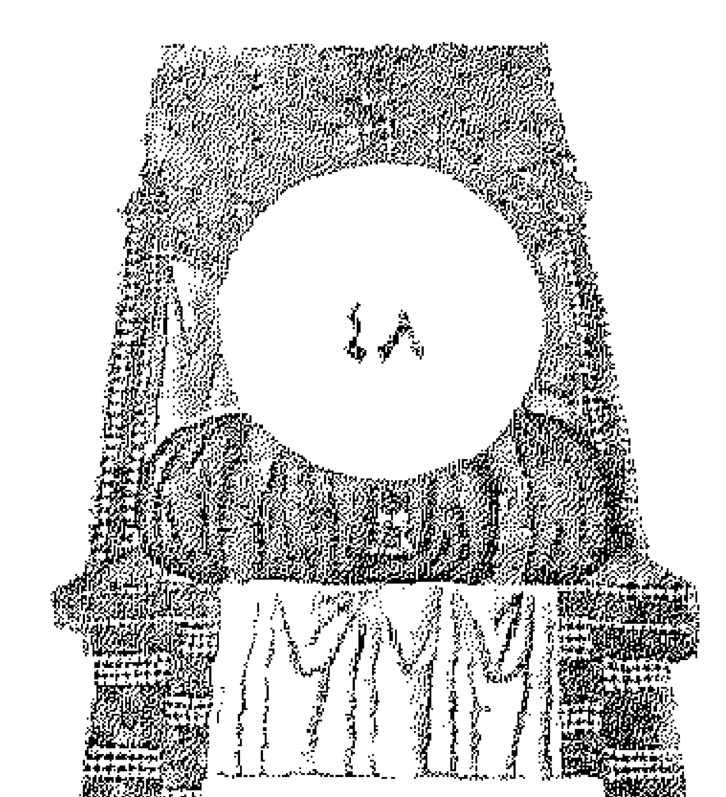


فسيفساء تصور ملك نورمانى ومعه أحد الجنود - جزيرة صقلية

مؤداها، أن احتلال القسطنطينية بات خطوة أساسية لأى نجاح يرتجيه فى الشرق، وأنه إذا أريد للقضية الصليبية النجاح فلابد من القضاء على بيزنطة، ولنقتبس هنا تلك العبارة البليغة التى علق بها الباحث الكبير ستيفن رانسيمان Steven Runciman على نتيجة هذه الحملة، إذ يقول: "كانت تلك خاتمة ملائمة للحملة الثانية، فما من حملة فى العصور الوسطى تضارع تلك الحملة التى خرجت وقد انعقدت عليها آمال بالغة الروعة، إذ وضع خطتها البابا، ودعا إليها وأوحى بها القديس برنارد بما اشتهر به من فصاحة، وقادها أعظم ملكين بغرب



الكاتدرائية التى تُوِّج فيها الملك فريدريك بارباروسا - جزيرة صقلية

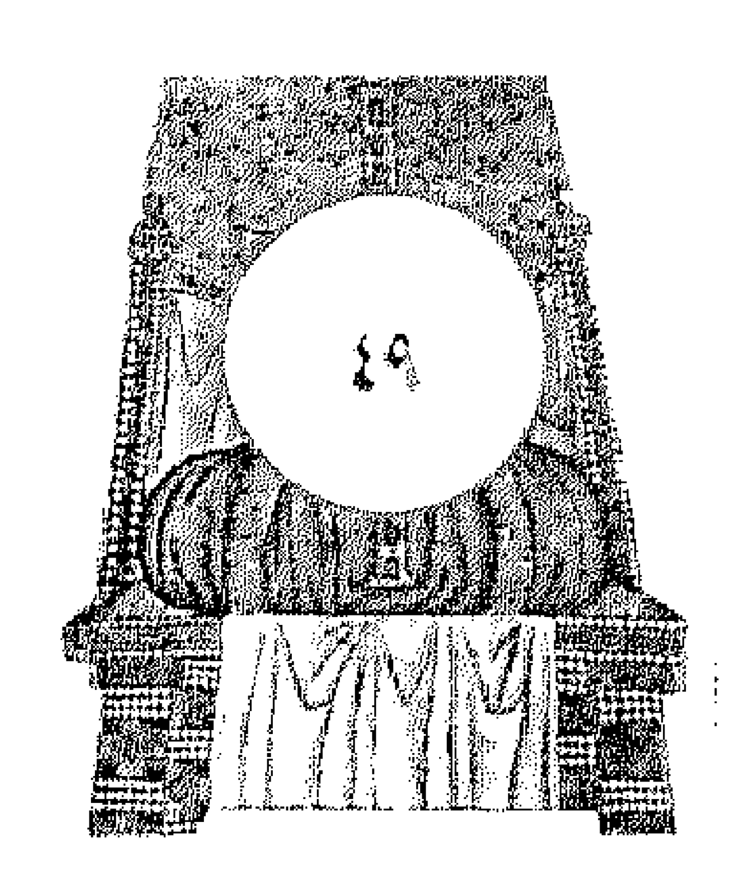


أوروبا، فبدت وكأنها تبشر بمجد العالم المسيحى وخلاصه، غير أنه لما بلغت نهايتها المشينة المذلة، كان كل ما أنجزته، أنها جعلت العلاقات بين المسيحيين فى الغرب والبيزنطيين من المرارة ما يؤدى إلى القطيعة بينهم".

وبعد الحملة الصليبية الثانية راح الغرب الأوروبى يبحث بجدية مشروع صليبية مقدسة تعصف بتلك الإمبراطورية المارقة، الخائنة، من وجهة نظره، وراح الملك النورمانى يسعى سعيا حثيثا إلى الإفادة من غليان الرأى العام الأوروبى بعد فشل الصليبية الثانية واتهامه لبيزنطة بخيانة قضية الصليب، فحمل على عاتقه- بمساعدة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية شوجير وبرنارد وبطرس الوقور- مهمة الدعوة لحملة صليبية جديدة تكون بيزنطة محطتها الأولى والأخيرة، وسرعان ما نجح فى الحصول على تأييد الملك الفرنسى لويس السابع عندما التقى به فى بوتينزا Potenza فى أغسطس ١١٤٩م، أما البابا يوجينوس الثالث، والذى تأثر وضعه الدولى بشدة بعد فشل الصليبية الثانية، فقد تلقف هذه الدعوة بحماس كبير، راجيا أن يضيف إلى سمو كرسيه البابوى شرف القضاء على إمبراطورية مسيحية.

ورغم أن روجر الثانى بذل قصارى جهده فى سبيل تشكيل هذا الحلف المعادى لبيزنطة، إلا أنه لم يفلح فى تحقيق هدفه الرئيسى وحلمه الأثير إلى قلبه بشن حملة صليبية على الإمبراطورية البيزنطية، ويبدو أن السبب الرئيسى فى إخفاقه يرجع إلى تضارب مصالحه مع البابوية، فالبابا كان يدرك تماماً أن أى مشروع صليبى جديد يوجه ضد بيزنطة لن يخدم سوى مصالح الملك النورمانى، وأن نجاح مثل هذه الحملة أمر من شأنه أن يدعم من قوة ونفوذ النورمان فى إيطاليا وبالتالى تصبح مصالح البابوية فى شبه الجزيرة معرضة للخطر، ومع تزايد مخاوف البابا من عواقب الصليبية الجديدة، لم يجد الأخير مفراً من التنصل من هذا المشروع، فتذرع بخلافاته مع روجر حول قضية الانتخاب الأسقفى ورفضه قبول مندوبى البابوية فى جنوب إيطاليا، وسرعان ما ساءت العلاقات بينهما وانقطعت بصورة تامة فى إبريل عام ١١٥١م عندما تجاهل روجر سيادة البابوية وتوج ابنه وليم دون مشاورة البابا.

وإذا كان مشروع ملك النورمان لغزو بيزنطة قد فشل بسبب تضارب السياسات الأوروبية، فإن شخصا آخر أكثر قوة وبأسا، وهو الملك الألمانى فريدريك بربروسا، والذى أضمر فى نفسه لبيزنطة كراهية لا تنحل عقدتها، قد حمل على عاتقه هذه المهمة، حيث تحدثنا المصادر البيزنطية واللاتينية أنه كان هناك ثمة شعور ساد بين الدوائر الحاكمة فى القسطنطينية بأن سياسة بربروسا العدائية لن تتوقف عند أسوار القسطنطينية، والمؤرخ البيزنطى كيناموس يشير إلى ذلك بقوله: "لقد أصبح شغل مانويل الشاغل هو كيفية كبح طموحات بربروسا وقوته الجامحة، خشية أن تدفعه إلى



الاستدارة لمهاجمة أرض الرومان التى ينظر إليها بعين الطمع منذ أمد بعيد"، وفى موضع آخر يشير إلى ارتباط سياسة مانويل تجاه المجر وإدراكه تهديدات الغزو الألمانى، فيقرن تدخله فى مسألة التعاقب على عرش المجر وتهديدات هذا الغزو فى عام ١١٦١م، ويعلق على ذلك بأن الإمبراطور سعى بكل طاقته إلى السيطرة على المجر، التى تقع فى المنطقة الحاجزة بين الدولتين، حتى لا يستخدمها برباروسا قاعدة لغزو الأراضى البيزنطية، والمؤرخ البيزنطى نيقتاس الخونياتى يشير بوضوح لا يقبل الشك إلى ارتباط سياسة مانويل الإيطالية بعد عام ١١٦٠م، بمخاوفه من تهديدات سياسة برباروسا التوسعية، وهناك أيضا رواية أجمع عليها كل من بوركارد Burchard الموثق العام فى البلاط الألمانى، وحولية كولونى، حيث يشيران إلى أن مانويل كتب إلى ملوك السلاجقة والعرب والكومان بأن بربروسا ينوى غزو أراضيه وأراضيهم بمجرد أن يستولى على مدينة ميلان الإيطالية، والمؤرخ الإنجليزى المعاصر حنا السالزبورى يؤكد رغبة بربروسا فى غزو الأراضى البيزنطية بقوله: "لقد أزمع الطاغية الألمانى مهاجمة إمبراطورية الإغريق، مما آثار بينهم الرعب الشديد، وأرسل سفاراته إليهم تعرض الاستسلام بدلاً من القتال"، وهو الأمر الذى أكدته أيضا الحولية البندقية حينما أشارت إلى أن برباروسا قد عقد العزم على تدمير اليونان وإخضاع أهلها لسيادته.

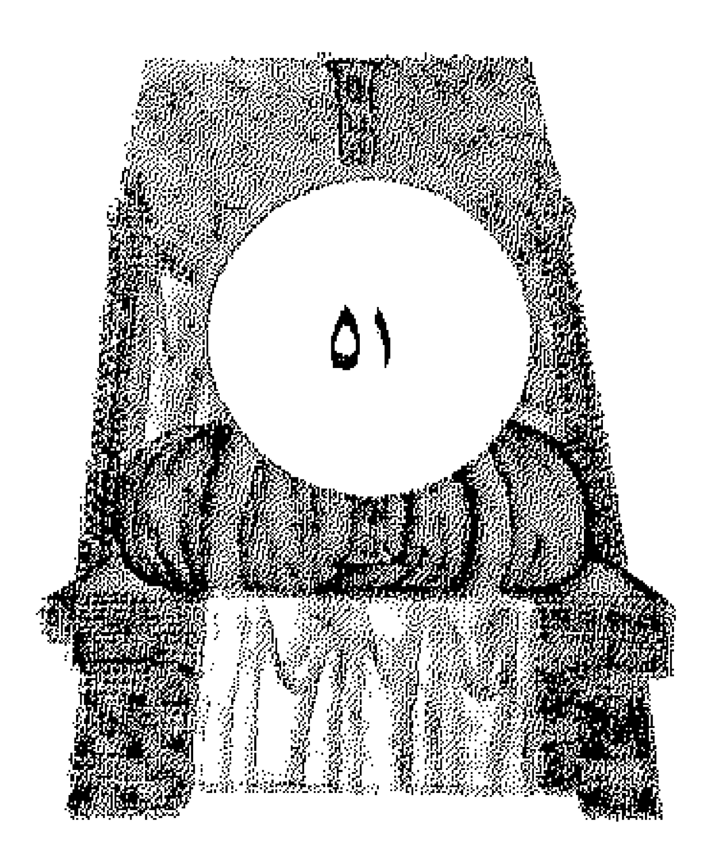
ومن العسير معرفة إلى أى مدى كان هذا الشعور الذى ساد بيزنطة، وأكدته المصادر البيزنطية واللاتينية المعاصرة، قائماً على شيء ما فعله أو قاله بربروسا، وحتى إذا كانت هذه التهديدات- كما يذهب الباحث الإسكتلندى ماجدالينو-Magdalino مجرد إنذار متعمد خطط له برباروسا ليتابع إخضاعه للمدن اللومباردية والحملة الصليبية المتجهة إلى الشرق، والمارة بالقسطنطينية، لإبادة القوى الإسلامية، فإنه ليس بعيداً عن التصديق أن بربروسا أضمر فى نفسه أو ربما أعلن، خطة عدائية كان لها سوابقها فى الإيديولوجية الألمانية الصليبية، فالرجل كان لديه تصور لا نهائى عن السلطة الإمبراطورية، وعليه بنى سياسته الرامية على إخضاع لومبارديا والتدخل فى اختيار الجالس على الكرسى الرسولى فى روما، وإذا كان هذا التصور مستمدا من القانون الرومانى فى جانب منه، فإنه فى الجانب الآخر مستمدا من الاعتقاد الراسخ فى سيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على العالم المسيحى، وأكثر الروايات إفراطاً فى إظهار حق بربروسا فى السيادة العالمية مسرحية"عدو المسيح Anti Christ "والتى عبرت عن هذا الحق فى حملة صليبية يقوم بها العاهل الألمانى، على أثرها يُسدل الستار على العهد الأخير للكنيسة، وهذه المسرحية، رغم أنها مجهولة المصدر والتاريخ، إلا أنه يُعتقد فى أنها كُتبت فى عام ١١٦٠م تقريباً، وهى عبارة عن شعر درامى، تبدأ بتأكيد الإمبراطور الألمانى- الرومانى- سيادته على ملكى فرنسا وبيزنطة كمقدمة للعمل الأساسى المقدس، الذى يسير فيه إلى بيت المقدس ويهزم ملك المسلمين، وعندئذ يتخلى عن تاجه ويعود إلى أرض الوطن كمجرد ملك تيوتونى Rex Teutonicorum.

لينتظر ظهور المسيخ الدجال والانتصار الـنهائى للكنيسة. وبالإضافة إلى هذه المسرحية، التى تـبدو دعاية ألمانية عدائية، هناك نبـوءات أخرى تشير إلى أن برباروسا سـيتقدم نحـو مدينة برنديزى بالجنوب الإيطالى ومنها يغـزو مدينة إبيروس Epiros البيزنطية ويدمر قوة الإمبراطور البيزنطى فى معركة دامية.

وعلى ذلك، يمكن القول بأن برباروسا قد بدأ بفتح النيران فى حرب من التـهديدات بين الإمـبراطوريتـين، فالمسرحـية الأولى شـاعت فى وقت تناقلت الإشاعات فى أنحاء الشـرق عن حملة صليبية ألمانية وشيكة، تمر بالقـسطنطينية فى طريقها إلى الشـرق، أما النبـوءات الأخرى فظهـرت فى وقت بات الغزو الألمانى لأبيـروس ممكناً، وذلك حينمـا عقد برباروسا معـاهدة مع جنوة وبيزا- بعد سـقوط ميلان- فى عام ١١٦٢م، ضـمن بها مساعدة المدينتين فى غزوه لجنوب إيطاليا.



ريتشارد قلب الأسد ينتصر فى معركة أرسوف ضد صلاح الدين



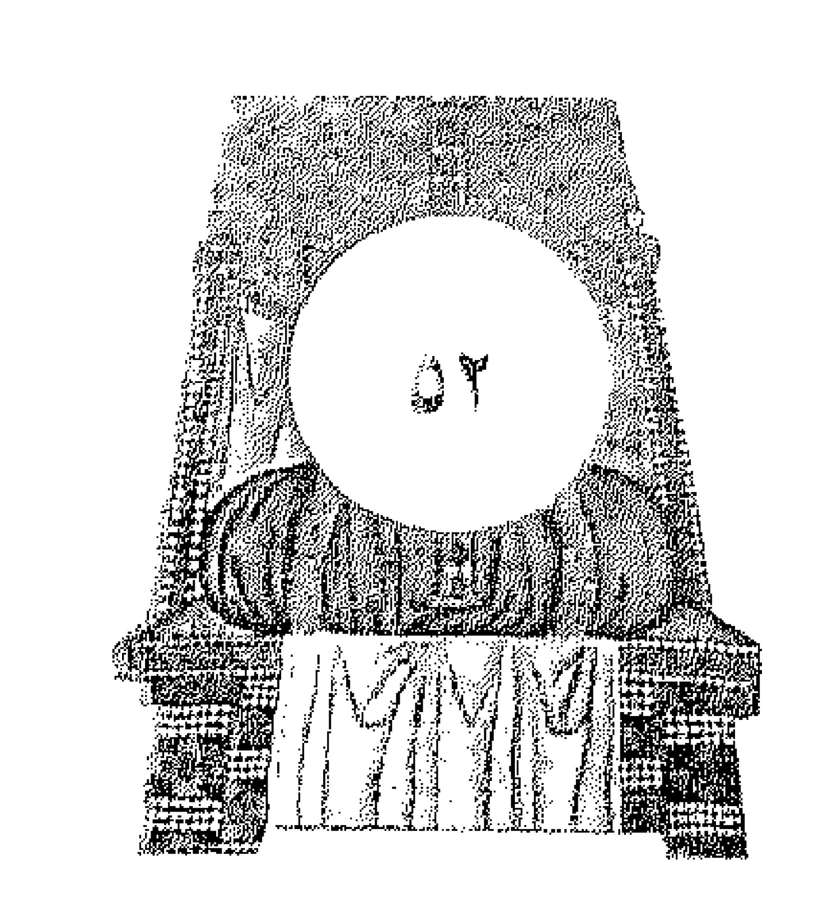
هكذا بات من المستحيل أن يلتقى الغرب وبيزنطة إلا على طريق الصدام، ورغم وفاة الإمبراطور مانويل عام ١١٨٠م، إلا أن ذلك لم يخفف أو يقلل من كراهية برباروسا لكل ما هو بيزنطى، وواتته الفرصة بقيام الحملة الصليبية الثالثة، التى كانت تجسيدا للفكر الصليبى تجاه بيزنطة، ففى الوقت الذى فضل الملكان الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد، والفرنسى فيليب أوغسطس، ركوب البحر المتوسط إلى الأراضى المقدسة، أبى بربروسا إلا أن يقود جيوشه الجرارة عبر الأراضى البيزنطية، وكأنه يضمر فى نفسه تحقيق حلم الصليبيين الأثير، والذى فشل سابقوه فى تحقيقه، وراح يعيث فسادا وتدميرا واحتلالا للمدن والأقاليم البيزنطية، وبلغ الأمر حد تبادل الإهانات مع الإمبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس، وراح بربروسا يتوعد ويهدد باحتلال القسطنطينية، وترجم تهديده إلى واقع عملى عندما كتب إلى ابنه هنرى السادس يأمره بتجهيز حملة صليبية لإبادة الجنس البيزنطى ومحوه من الوجود، وإزاء ذلك لم يجد الإمبراطور البيزنطى بديلا عن عقد تحالف مع الناصر صلاح الدين الأيوبى للتصدى سويا لوقف هذا الزحف الألمانى، ورغم أن هذا كان أبسط قواعد الدفاع عن النفس الذى يمكن أن تتبعها دولة تسعى للحفاظ على أراضيها، إلا أن الغرب الأوروبى تلقف ذلك وعده دليل اتهام جديد ضد بيزنطة على خيانتها للقضية الصليبية بتحالفها مع أعداء المسيح !!.

وإذا كانت بيزنطة قد جنبت خطر بربروسا نهائيا بموته غرقا فى أحد أنهار آسيا الصغرى، و خطر الغرب مؤقتا بفشل ذريع للحملة الصليبية الثالثة، إلا أن الغرب الأوروبى خرج من هذه التجربة بهدف واحد يأتى فى الأهمية قبل أى هدف أخر، ألا وهو إسقاط بيزنطة، وتحقيق الحلم البابوى والفكر الصليبى بالانتصار على "كنيسة مارقة ودولة خائنة" .



صلاح الدين الأيوبى القائد المنتصر على الصليبيين

ومحرر القدس



الفصل الخامس
البيزنطيون واللاتين و"كراهية شعب

اصطبغت مدينة القسطنطينية عبر تاريخها الطويل بصبغة عالمية، ظهرت جلية فى القرن الثانى عشر، ففى ذلك القرن بلغ التوسع الحضرى البيزنطى ذروته، وأخذت العاصمة البيزنطية تجذب إليها المهاجرين من شتى الأنحاء، فبدت كبوتقة انصهرت فيها مختلف أجناس وسلالات العالم الوسيط، وترددت بين جنبات شوارعها وأزقتها أصداء جلبة الألسنة الأجنبية.

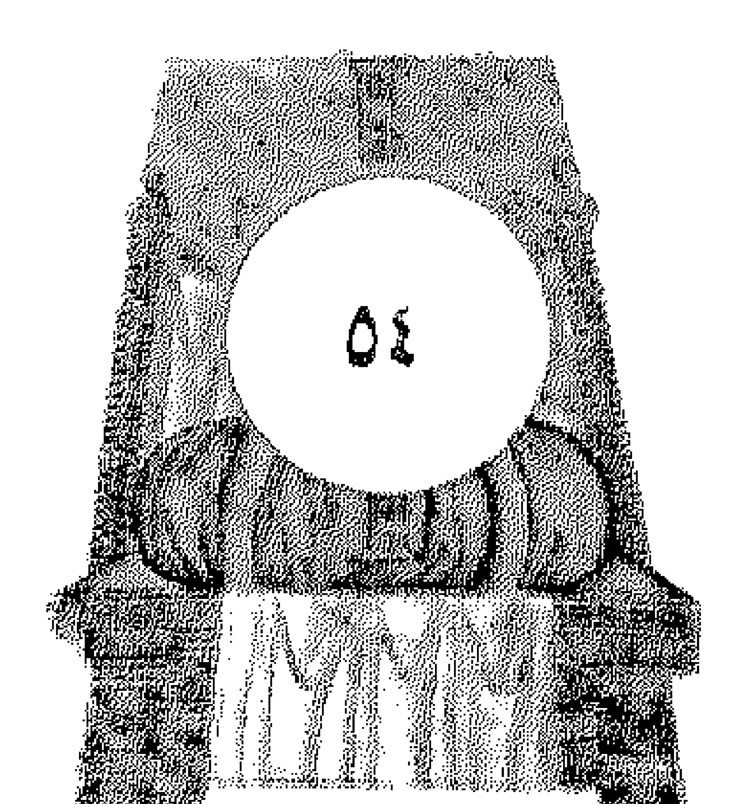
ولا تكاد المصادر البيزنطية المعاصرة تخلو من الإشارات الدالة على هذا الأمر، ويكفى أن نطالع بعض القصائد التى كتبها شعراء هذا القرن، والتى عبروا من خلالها عن دهشتهم العميقة تجاه ذلك الخليط الغريب من الأجناس، الذى ضمته القسطنطينية بين أكنافها، ففى قصيدة مديح إمبراطورى مُؤرخة بعام ١١٧٤م يصور لنا يوستاسيوس السالونيكى كيف أصبحت القسطنطينية قبلة للوافدين من شتى الدول والشعوب بقوله: -"يا إلهى ! يا لهذه الملابس العجيبة ! ويا لذلك الكم من اللغات الغريبة !، إنى أشعر وكأن كافة الأجناس من شتى الأنحاء ماثلة هنا، فذلك الكومانى أعرفه تمام المعرفة وباتت رؤيته لا تدهشنى، أما هذان الرجلان الصربى والمجرى، فهما رعايا لنا، كما أعرف ذلك الرجل فهو من سلالة الأتراك المتسمين جميعاً بالبدانة المفرطة، وكذلك هذا الأرمنى الذى يكشف بدهاء عينيه وبحاجبيه الملتصقتين عما يدور فى أعماق نفسه من خبث ومكر، وأعرف ذلك الهندى ذا البشرة الداكنة، وذلك الحبشى ذا البشرة الحالكة السواد، وأيضا أعرف ذلك الفرنسى المتغطرس ذا الطلعة الجميلة، أما ذلك الأخير الذى يليهم فمن الجنس الإيطالى المتغطرس الذى أتعرف عليه بمجرد رؤيته .. بيد أن هناك أناساً لا أعرف هويتهم، فلهجتهم الغريبة وهيئتهم العجيبة تثير الدهشة وتدفع المرء إلى إطالة النظر فيهم، أولئك أتوا من أقاصى الأرض، من حيث لا يتوقع المرء".

وفى نفس الاتجاه راح الشاعر البيزنطى ثيودور برورموس يخط قصيدة مديح مخاطباً عاصمة إمبراطوريته: "أى روما الجديدة، فلتنظرى إلى أولئك الوافدين الجدد الذين جلبهم لك مانويل كومنينوس حديثاً، كم هو ضخم عددهم بحيث يعجز المرء عن حسابه، وليكن الشكر والعرفان إلى ذلك الرجل الذى جلب لك العزة والكرامة بين كافة الأمم والشعوب"، وكذلك راح

شاعر آخر هو يوحنا تزيتزس John Tzetzes يسوق لنا سبع تحيات بسبع لغات أجنبية مختلفة، مؤكداً على أنه قد أصبح من الضرورى الإلمام بها فى الحياة اليومية للعاصمة.

ومن بين العناصر الأجنبية التى استطاعت أن تجد لها مقاماً ومستقراً داخل العاصمة البيزنطية كان اللاتين، لا سيما الإيطاليون، هم أكثر العناصر حظوة ورعاية وعدداً، فمع حلول منتصف القرن الثانى عشر أخذ اللاتين يتهافتون على القسطنطينية فى أعداد هائلة، حتى أصبح من المألوف رؤيتهم فيها كتجار وجنود مرتزقة ورجال دين وموظفين فى الإدارة البيزنطية، ولا شك أن ذلك جاء نتيجة للترحاب الشديد الذى لاقوه على يد مانويل، فتسجل الحوليات البندقية أنه كان بالقسطنطينية وقت اعتقال مانويل للبنادقة فى مارس ١١٧١م ما يقرب من عشرة آلاف تاجر بندقى، وأن عدد البنادقة الذين أبحروا إليها فى العام نفسه بلغ عشرين ألفاً ، كما يقدر يوستاسيوس السالونيكى عدد اللاتين المقيمين فى القسطنطينية عام ١١٨٢م بستين ألف نسمة.

وقد أقام اللاتين، خاصة التجار الإيطاليين، فى أحياء خصصتها الحكومة الإمبراطورية لهم، وقد احتلت تلك الأحياء أفضل المواقع التجارية فى القسطنطينية على امتداد ساحل خليج القرن الذهبى، وإذا كانت هذه الأحياء هى المركز الرئيسى لتواجد التجار الإيطاليين فى الإمبراطورية البيزنطية، إلا أنه كانت هناك أحياء ومراكز تجارية مشابهة فى كثير من مدن وأقاليم الإمبراطورية، وقد سجلت لنا الوثائق التجارية النجاح الكبير الذى أحرزه التجار الإيطاليون المشاركون فى تجارة الإمبراطورية فى منتصف القرن الثانى عشر، وسرعان ما شكلوا قوة كبيرة لا يستهان بها فى الإمبراطورية، فرغم أنهم من الناحية النظرية رعايا الإمبراطورية، خاضعين لنظمها وقوانينها، مسئولين أمام السلطات المحلية عن احترام الأمن والنظام العام فى أحيائهم، هذا فضلا عن كونهم خدام الإمبراطور المخلصين، وعليهم أن يدركوا دوما حقيقة أنهم أينما كانوا مدينين له بكرمه وفضله، ومن ثم عليهم دوما أن يكونوا على أهبة الاستعداد لخدمته، إلا أن الواقع الفعلى كان غير ذلك تماماً، حيث مُنحوا مكانة متميزة وضعتهم بعيداً عن سيطرة السلطات البيزنطية، ففى مرسوم عام ١٠٨٢م لم يعف البنادقة من دفع الضريبة الجمركية فحسب، بل منحوا مكانة خاصة وضعتهم فوق السلطة القضائية لموظفى الإدارة الإمبراطورية، من وإلى المدينة إلى من دونه ، بل والأكثر من ذلك بدأت اللجان تفد من البندقية إلى القسطنطينية للفصل فى النزاعات التى تنشب بين أفراد الجالية البندقية المقيمة فى العاصمة، ولا شك فى أن ذلك غرس فى نفوس البنادقة إحساساً بالتفوق والتميز عن غيرهم سواء التجار الجنوية والبيازنة أو حتى المواطنين المحليين ؛ ونتيجة لذلك أصبح الصدام وشيكاً، وخاصة أن سلوك البنادقة وتصرفاتهم أكدت شعورهم

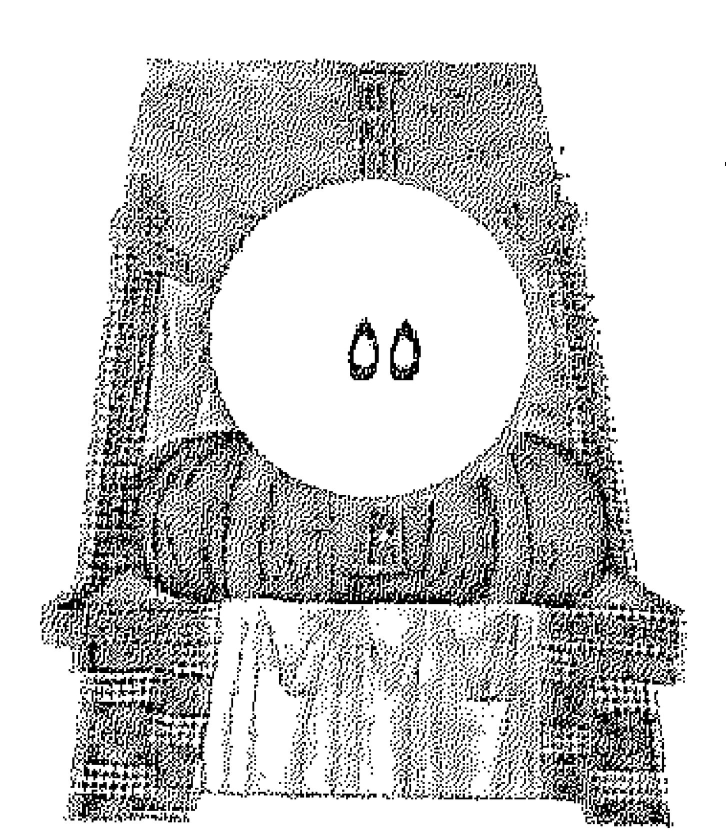


بالاستقلال، حيث رفضوا حصر أنفسهم فى المناطق المخصصة لهم وراحوا ينتشرون بين المواطنين المحليين فى كافة الأنحاء، الأمر الذى اقلق السلطات البيزنطية إلى أقصى مدى، ولاشك فى أن الإمبراطور مانويل قد أدرك خطورة الموقف، لكنه فى الوقت نفسه كان يدرك أهمية النشاط التجارى البندقى فى رخاء الإمبراطورية الاقتصادى ، ومن ثم كان عليه أن يجد حلاً وسطاً يحد به من استقلال ونفوذ البنادقة مع ضمان بقائهم على الولاء له، وقد تمثل ذلك الحل فى الفصل بين التجار المستوطنين بصفة دائمة وأولئك المقيمين بصفة مؤقتة، بأن أطلق على الأولين اسم Burgesses، أى المستوطنين.

وليس معروفاً على وجه التحديد الوضع القانونى لفئة المستوطنين، ويبدو أنها كانت النظير التجارى لفئة الفرسان اللاتين المرتبطين بقسم الولاء المباشر للإمبراطور، وخاصة أن المؤرخ البيزنطى كيناموس يشير إلى أن أفرادها تعهدوا بأن يظلوا على ولائهم له ولمواطنيه طالما بقوا على قيد الحياة، وعلى ذلك لابد أن هؤلاء، بدلا من كونهم رعايا تابعين لجمهوريتهم خاضعين لقوانينها وإشرافها القضائى، كانوا رعايا للإمبراطور، ومسئولين أمامه عن تصرفاتهم مسئولية مباشرة، لهم ما لمواطنيه من حقوق، وعليهم واجباتهم، مع تمتعهم بكافة الامتيازات التجارية الممنوحة لهم فى المراسيم الإمبراطورية. وبهذه الطريقة سعى مانويل إلى إخضاع البنادقة المشاغبين لإشرافه المباشر، وفى نفس الوقت إلى استثمار مهاراتهم التجارية لصالح إمبراطوريته، ولاشك فى أنها كانت خطة بارعة، لكنها لم تكن مغرية للبنادقة على الإطلاق، وكان عدم التزامهم بها عندما هاجموا الحى الجنوى بالقسطنطينية عام ١١٧٠م، أحد الأسباب الرئيسية التى



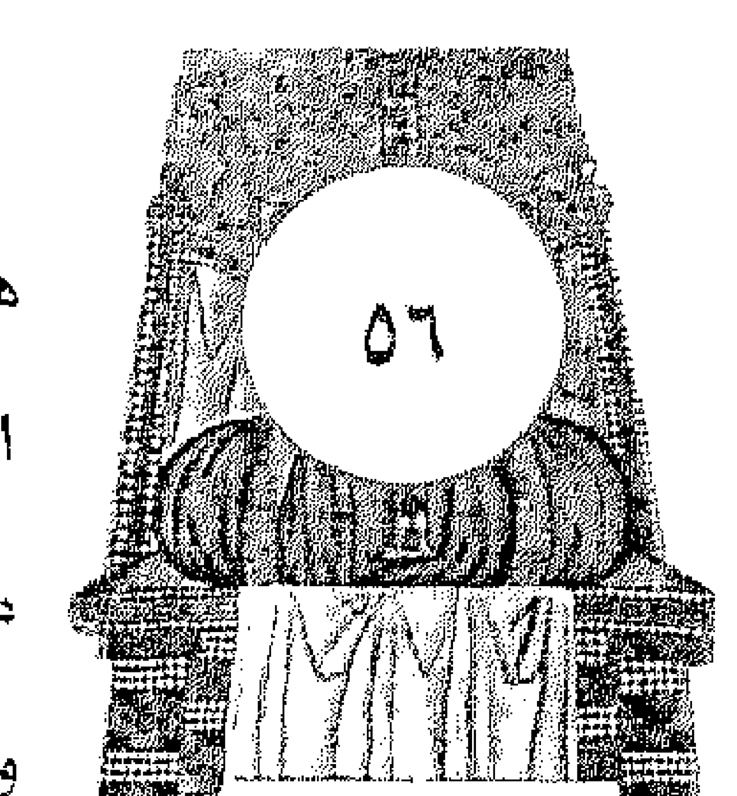
فسيفساء لموضوع دينى - كاتدرائية آيا صوفيا - القسطنطينية



دفعته إلى اعتقالهم ومصادرة أملاكهم فى مارس ١١٧١م، ولم يقتصر الوجود اللاتينى فى الإمبراطورية خلال عصر مانويل على الحياة الاقتصادية، بل نجح فى التغلغل داخل الحياة السياسية والإدارية بل والدينية أيضا، حيث يؤكد المؤرخون اللاتين المعاصرون على أنه عهد بأعمال حكومته الهامة إلى اللاتين لأنه وجدهم أهلاً للثقة أكثر من رعاياه المحليين ، وهو الأمر الذى راح يؤكده المؤرخ البيزنطى نيقتاس الخونياتى بأسلوبه النقدى اللاذع، فيقول: "لقد اندفع اللاتين أفواجاً، واحتشدوا فى البلاط فكانوا أهل حظوة لدى الإمبراطور الذى منحهم ثقته، وسبحوا فى بحور من المال، ولم يحصلوا على الوظائف العليا فقط، بل شغلوا كذلك وظائف القضاء رغم أنها كانت تتطلب رجالاً حاذقين فى القانون، كما اختصوا بفرض الضرائب وجبايتها، ونتيجة لذلك تحولت الإدارة المالية إلى إدارة فاسدة ومستبدة".

وقد يكون فى نقد نيقتاس الخونياتى بعض المبالغة، ولكنها على أية حال لم تكن مبالغة مفرطة، فقد امتلأ القصر الإمبراطورى فعلاً باللاتين، وأستخدمهم مانويل على نطاق واسع فى سفاراته إلى الملوك والأمراء اللاتين سواء فى الغرب الأوروبى أو فى الإمارات الصليبية، حيث أقام بعضهم فى خدمة الإمبراطور بصفة دائمة، كاللاجئ النورمانى ألكسندر كونت جرافينا Alexander of Gravina ، الذى كان قائداً للجنود النورمان المرتزقة فى الجيش البيزنطى، وإليه عهد مانويل بمقابلة لويس السابع وكونراد الثالث وقت اقتراب جيوش الحملة الصليبية الثانية من الأراضى البيزنطية، كما مثل الإمبراطور فى مباحثاته مع المدينتين الإيطاليتين أنكونا والبندقية، ووقع نيابة عنه معاهدة مع ملك بيت المقدس عام ١١٦٦م لشن أول هجوم بيزنطى-لاتينى على مصر- والذى حدث عام ١١٦٩م، بينما أقام البعض الآخر فى خدمة الإمبراطور بصفة مؤقتة، فعلى سبيل المثال تضمنت سفارة الإمبراطور إلى البلاط الفرنسى عام ١١٦٣م كلاً من رئيس دير القديسة ماريا البندقى فى أدريانويل ورئيس مستشفى القديس يوحنا بالقسطنطينية.

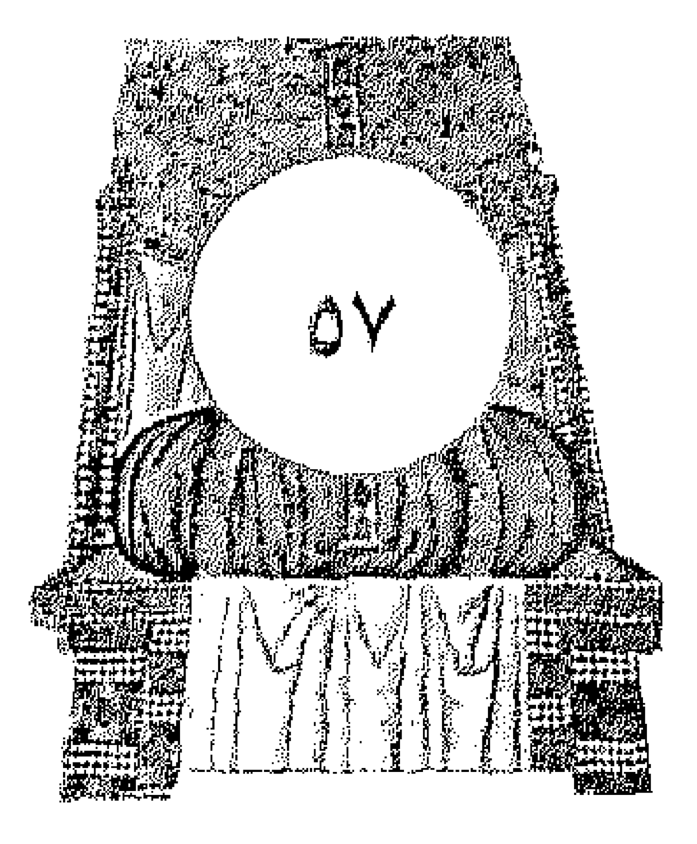
كذلك كان بلاط مانويل عامراً بالمترجمين اللاتين، وعلى رأسهم الإيطالى ثيوفيلاكت Theophylact رئيس مترجمى البلاط، والذى وصفه وليم الصورى بأنه رجل حاد الذكاء شديد الغيرة على المصالح الإمبراطورية، وذلك أثناء مشاركته فى سفارة إلى بيت المقدس عام ١١٦٠م ، والإيطالى ميخائيل الأوترانتى Michael of Otranto الذى شارك فى سفارة بيت المقدس عام ١١٦٦م، والجنوى جيبتروس Gibetrus الذى شارك فى سفارتين لروما وجنوة عام ١١٧٠م ، والبيزى ليو إتريانوس Leo Eterianus الذى ترجم صلاة قداس القديس يوحنا خرايزوستوم إلى اللاتينية.



وقد احتل بعض اللاتين مكانة هامة فى البلاط البيزنطى، كالبيزى هوجو إتريانوس Hogo Eterianus الذى لعب دوراً هاماً فى حياة العاصمة الدينية، وكان لديه العديد من المؤهلات التى أتاحتله أن يكون وسيطاً فى مفاوضات مانويل مع البابا ألكسندر الثالث بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، أهمها أنه كان إيطالياً يدين بالمذهب الكاثوليكى، وينتمى إلى أسرة مرموقة تتمتع بنفوذ قوى، ليس فقط فى بيزا بل أيضا فى الإدارة البابوية لألكسندر الثالث: كما أنه أتقن اللغة اليونانية وشارك فى معظم مناقشات البلاط التى دارت حول بنود الإيمان المسيحى، ويبدو أن ذلك كله دفع مانويل إلى اتخاذه مستشاراً له فى الشئون الدينية، حيث كلفه فى عام ١١٦٦م بصياغة مرسوم حول انبثاق الروح القدس، وبأسلوب يناسب عقيدة كل من البيزنطيين واللاتين.

كما لعب التاجر الجنوى بالدوينو جويرتشو Balduino Guercio دوراً بارزاً فى العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة وجنوة خلال عهد مانويل، وشارك فى حملات الأخير ضد النورمان فى كورفو عام ١١٤٨م حيث وقع أسيراً فى قبضتهم، ووقع مرة أخرى فى الأسر عندما قبض عليه أمير إنطاكية أثناء تنفيذه بعض المهام التى كلفه بها الإمبراطور ، وقد ظل بالدوينو يحظى بثقة مانويل فشارك فى مفاوضاته مع لويس السابع بشأن زواج ابنه وولى عهده الأمير ألكسيوس من ابنه لويس الأميرة آنى Agnes، وفى عام ١١٧٩م عُهد إليه بقيادة سفينة جنوية لإحضار العروس الفرنسية إلى القسطنطينية ، ولقاء الخدمات الكثيرة التى قدمها بالدوينو للإمبراطورية كرمه مانويل كفصل إمبراطورى ومنحه إقطاعاً Pronoia عبارة عن بعض الأراضى وقصر بالقسطنطينية امتلكها لمدة عشرين عاماً ، ويبدو أن بالدوينو قضى معظم سنوات حياته فى بيزنطة، قام خلالها بدور المتحدث عن مصالح مدينة جنوه داخل البلاط البيزنطى.

وهناك بعض الشواهد التى تشير إلى أن اللاتين لعبوا دوراً فعالاً فى الإدارة البيزنطية، وشغل بعضهم المناصب العليا فيها، كاللاجئ النورمانى روجر سكلافونى Roger Sclavone الذى كان حاكماً لإقليم دالماشيا فى عام ١١٨٠م ، كما شكل المرتزقة اللاتين جانباً كبيرا من الجيش والحرس الإمبراطورى الخاص وكان اللاجئون النورمان هم أكثرهم نجاحاً فى الحصول على المناصب القيادية، فقد كان هيرفى Herve، المعروف بابن الفرنجة Frankopolus، قائداً لثيم الشرق، كما شغل جيفاردوس Giphardos وظيفة قائد ثيم تراقيا Thrakesion، ويشيد نيقتاس الخونياتى بشجاعة أربعة أشقاء من أسرة بيتراليفاس Petraliphas النورمانية فى حملة مانويل لاسترداد كورفو من النورمان فى عام ١١٤٨م ، كما شارك نقفور بيتراليفاس Nikephor Petraliphas فى الهجوم البيزنطى على المجر عام ١١٦٦م، وفى عام ١١٧٣م كان ألكسيوس

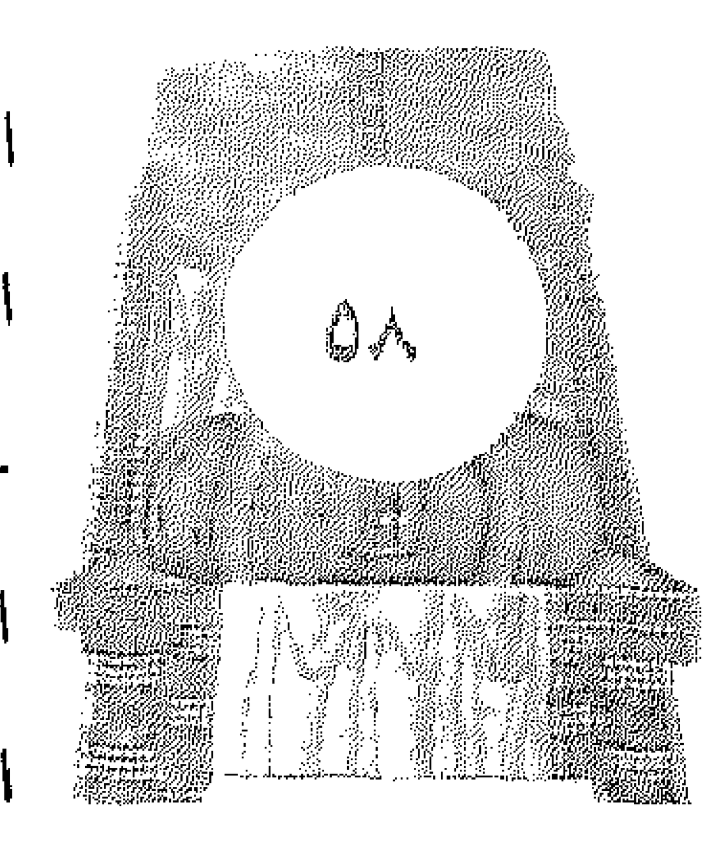


بيتراليفاس Alexios Petraliphas قائداً للفرقة النورمانية فى حملة مانويل ضد قلج أرسلان فى الآناضول.

وقد سعى مانويل نفسه إلى تشجيع اللاتين على الالتحاق بالخدمة العسكرية فى الجيش البيزنطى، والإقامة بصفة دائمة فى أراضى الإمبراطورية، فاستبدل المنح والمكافآت المالية بمنح البرونويا Pronoia التى تماثل تقريباً الإقطاعات الممنوحة للفرسان فى الغرب الأوروبى، حيث كانت الحكومة البيزنطية تتنازل عن ريع بعض أملاكها للجنود المرتزقة لقاء خدمات معينة، سواء أكانت هذه الخدمات قد أُنجزت بالفعل أو فى سبيلها إلى ذلك مستقبلاً ، وكانت البرونويا تُمنح لشخص واحد ولفترة محددة، غالبا وليس دائما ما تكون طيلة حياته، ولم يكن من حق حائزيها التصرف فيها بالبيع أو التأجير أو التوريث أو حتى نقل حيازتها، إذ إنها كانت رهن الاسترداد من قبل خزانة الدولة فى أى وقت ، وعادة ما تكون منحة البرونويا قطعة أرض زراعية أو مستصلحة، لكنها فى بعض الأحيان كانت عبارة عن قصر أو حق صيد فى أحد الأنهار.

ولم يكن اللاتين على الدوام متطفلين على البناء الاجتماعى البيزنطى، بل نجح بعضهم فى التوافق والاندماج داخلَ هذا البناء، وكانت عملية الاندماج تبدأ بالدخول فى خدمة الإمبراطور والحصول على برونويا، غير أن الاندماج الكامل كان يتطلب أكثر من مجرد علاقة إقطاعية مؤقتة، إذ كان يتحقق بإتقان اللغة اليونانية والتحول إلى عقيدة الإيمان الأرثوذكسى، وأخيراً بمصاهرة أسرة بيزنطية. وقد نجحت ثلاث أسرات نورمانية فى تحقيق هذا الاندماج الكامل دون أن تتخلى عن أسمائها اللاتينية، وتنحدر هذه الأسرات من نسل ثلاثة مغامرين نورمان دخلوا الخدمة البيزنطية فى أواخر القرن الحادى عشر، وهم روجيريوس Rogerios وراءول Raoul وبيترا اليفاس Petrali-phas، وقد نجح بعض أفرادها فى مصاهرة الأسرة الكومنينية، وأصبحوا من كبار ملاك الأراضى، ونالوا الألقاب الرفيعة، وشغلوا المناصب العسكرية القيادية.

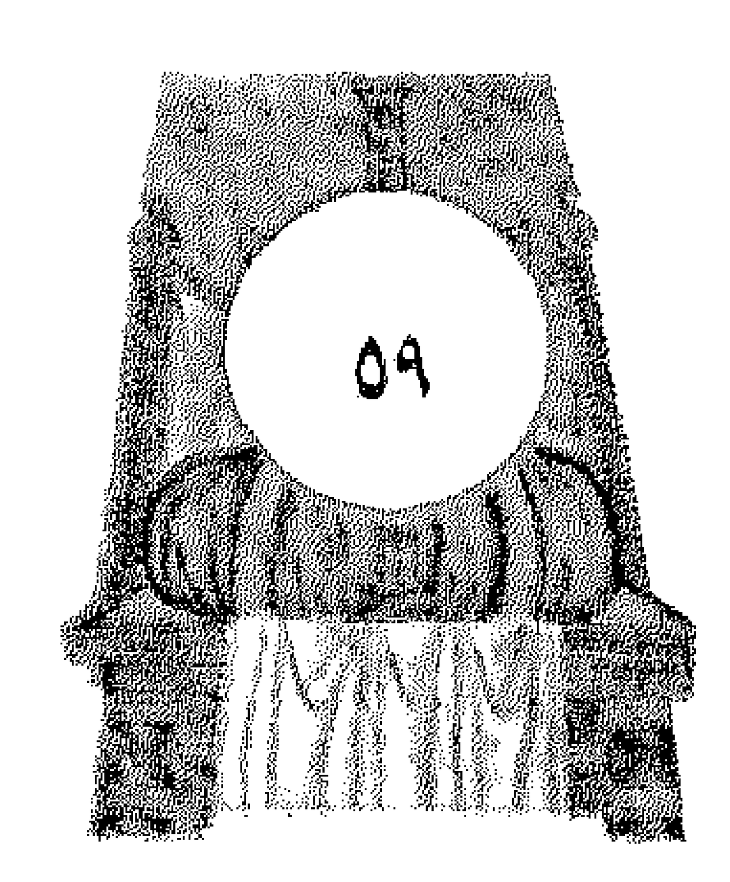
ورغم أن الزواج بين البيزنطيين والخارجين على دائرة الكنيسة الأرثوذكسية طبقاً للقوانين البيزنطية زواج غير شرعى ، كان الزواج المختلط بين اللاتين والبيزنطيين أمراً شائعاً فى منتصف القرن الثانى عشر، فالمؤرخان البيزنطيان كينا موس ونيقتاس الخونياتى راحا يظهران استياءهما من التجار اللاتين الذين تزوجوا من نساء بيزنطيات، وأقاموا معهن فى منازل خارج الأحياء المخصصة لإقامتهم، وربما كانت مثل هذه الزيجات تقتضى تحول الطرف اللاتينى إلى عقيدة الإيمان الأرثوذكسى، حيث يشير المؤرخ الفرنسى أودو الدويلى إلى أن الكنيسة البيزنطية كانت تجبر اللاتين الذين تزوجوا من بيزنطيات على التخلى عن مذهبهم الكاثوليكى والتحول إلى الأرثوذكسية . وهو الأمر الذى أشار إليه الإمبراطور نفسه فى حواره مع البيزى هوجو إتريانوس وقت مفاوضاته مع



البابوية بشأن إعادة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، كما راح رجل القانون البيزنطى بالسامون Balsamon يعلق على القانون الرابع عشر لمجمع خلقدونية، الذى حرم على البيزنطيين الزواج من مهرطقين، بقوله: إن اللاتينى الذى يتزوج من بيزنطية لابد أن يعاد تعميده على المذهب الأرثوذكسى، وفى حالة عدم حدوث ذلك توقع عقوبة الحرمان الكنسى على الزوجة البيزنطية.

وقد ضرب القصر الإمبراطورى نفسه المثل الأعلى فى عدد الزيجات التى تمت بين الجانبين البيزنطى واللاتينى، حيث كانت المصاهرات السياسية مع البيوتات الحاكمة فى الغرب اللاتينى هى أحد أسلحة مانويل الدبلوماسية، وقد استخدم مانويل هذا السلاح على نطاق واسع، ويكفى للدلالة على ذلك الإشارة إلى أنه نفسه تزوج من أميرتين لاتينيتين، الأولى هى الأميرة الألمانية برتا سالزباخ شقيقة زوج الملك الألمانى كونراد الثالث، والثانية ماريا الإنطاكية Mary of Antioch أميرة إنطاكية كما زوج ابنه ووريث عرشه ألكسيوس من الأميرة الفرنسية آنى Agnes ابنة الملك الفرنسى لويس السابع، ولم يكن لمانويل سوى ابنة واحدة، هى الأميرة ماريا، ولكنه استخدمها كورقة رابحة فى العديد من مشروعات المصاهرة مع الغرب اللاتينى، حيث تفاوض على زواجها من بيلا

الملك هنرى الثانى فى أحد الموضوعات الدينية

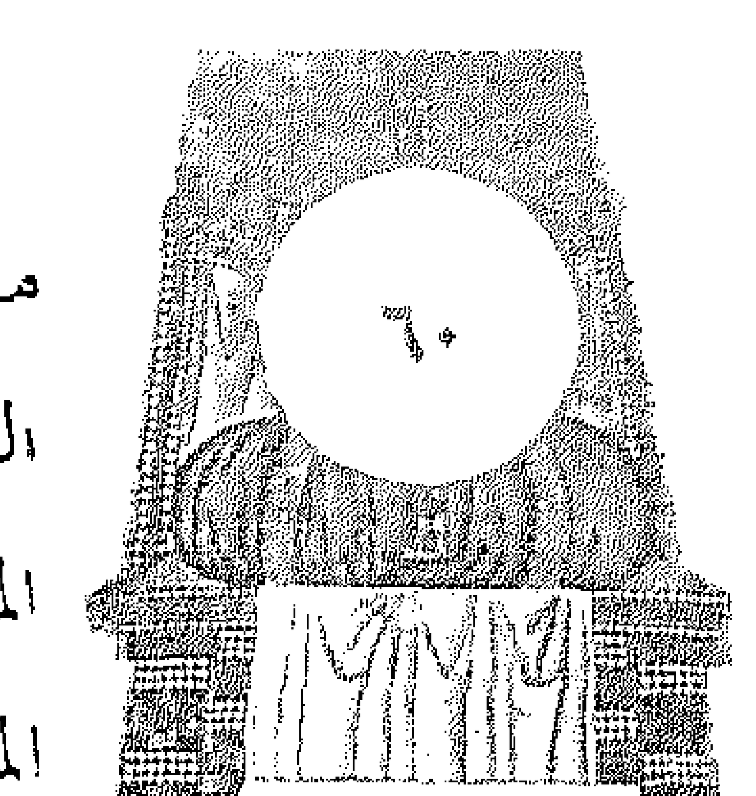


ملك المجر Bela of Hungary، وهنرى الثانى ملك إنجلترا Henry II of England، ووليم الثانى ملك صقلية William II of Sicily، وهنرى ابن فردريك بربروسا، وأخيراً النبيل الإيطالى رينير مونتفيرات Renier of Montferrat الذى كان أول خطيب يتزوجها بالفعل عام ١١٧٩م.

ولم تكن دبلوماسية مانويل كومنينوس قاصرة على استيراد العرائس اللاتينيات فحسب، بل امتدت إلى تصدير العرائس البيزنطيات على نطاق واسع، فزوج ثيودورا ابنة أخيه اندرونيقوس من هنرى دوق النمسا Henry of Austria والأخ غير الشقيق لكونراد الثالث فى عام ١١٤٨م، وزوج ثيودورا ابنة أخيه إسحق من بلدوين الثالث ملك بيت المقدس Boldwin of Jerusalem فى عام١١٥٨ م، وزوج أختها ماريا من ستيفن ملك المجر Stephen of Hungary فى عام ١١٦١م، وزوج أخريات من عمورى ملك بيت المقدس Amory of Jerusalem، وبوهيموند أمير إنطاكية Bohemond of Antioch. ولا شك فى أن السبب الذى دفع مانويل إلى تصدير هذا العدد الكبير من أميرات البيت الإمبراطورى إلى المناطق اللاتينية فى الشرق والغرب، هو حرصه على خلق وجود مؤثر له فى العالم اللاتينى، بحيث تكون هذه الأميرات ممثلات له فى هذا العالم، وبجوار حكام من مصلحته أن يدخلهم فى دائرة نفوذه.

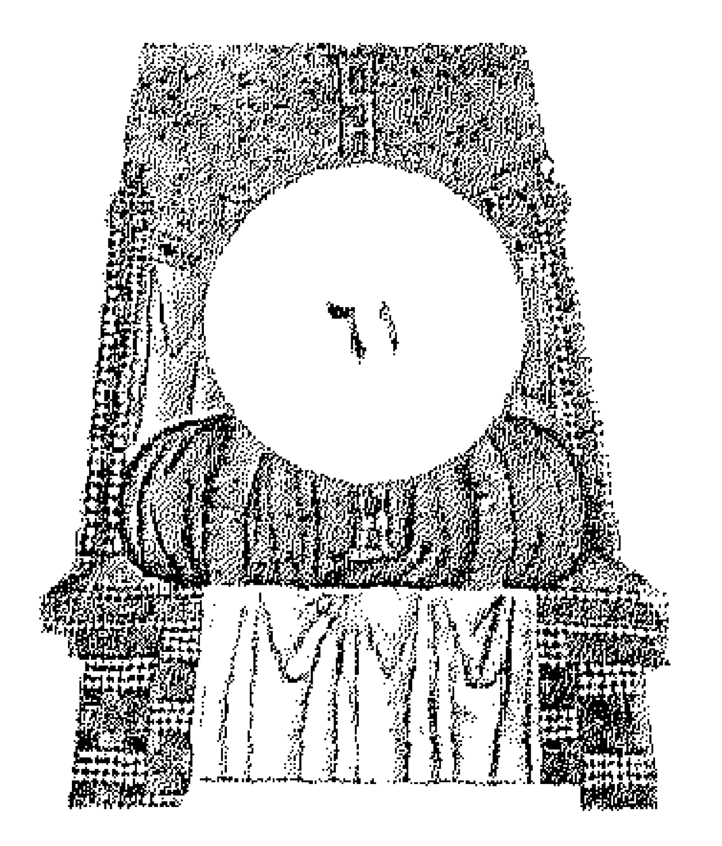
ولاشك فى أن تغلغل اللاتين فى حياة العاصمة السياسية والاقتصادية والدينية قد أحدث ردود فعل عنيفة بين مختلف طبقات وفئات المجتمع البيزنطى، ويكفى أن نتصفح روايات اللاتين المعاصرين لندرك إلى أى مدى وصل الاستياء البيزنطى من اللاتين، وقد عبر المؤرخ الصليبى وليم الصورى عن ذلك بقوله: "لقد أدت رعاية مانويل لللاتين أن توغرت ضدنا صدور أشراف بيزنطة لاسيما أقارب الإمبراطور الأدنون، وعششت البغضاء فى نفوس غيرهم، وامتلأت القلوب كلها بالحقد الأسود الذى لا تنحل عقدته"، وهو الأمر الذى راح الإيطالى هوجو أتريانوس يؤكده بقوله: "لقد أصبح يُشار إلى اللاتين فى شوارع العاصمة كأشياء تثير المقت والكراهية".

وفى الحقيقة؛ لم يكن استياء البيزنطيين من اللاتين أمراً مستغرباً، فالمتصفح لكتابات المؤرخين البيزنطيين، لاسيما المتأخرين منهم، سيلحظ بوضوح مدى زهوهم اللامحدود بمدينتهم وإمبراطوريتهم وتقاليدهم الموروثة، فالبيزنطيين من الإمبراطور الجالس على عرش القسطنطينية وحتى رجل الشارع، كانوا يرون أنهم وحدهم الرومان الحقيقيين أما ما عداهم فهم مجرد برابرة أجلاف، وعالمهم هو عالم الإيمان والنظام الصحيح، عالم واحد ثابت، إمبراطوره واحد، والحياة خارج هذا العالم بلية عظمى سيعالجها الرب يوما ما.



وجاءت تجربة الحركة الصليبية، وخلالها تحمل الشعب البيزنطى الكثير من الإهانة وتكبد الخسائر الفادحة على يد الصليبيين، لتسهم فى تقوية الشعور البيزنطى بالتشامخ على كافة شعوب الغرب بوصفة شعب الله المختار، وقد أثيرت عقدة التشامخ هذه أكثر من كونها أحدثت مع الاحتكاك المباشر بممثلى الغرب اللاتينى الذين توافدوا على الإمبراطورية فى أعداد كبيرة خلال القرن الثانى عشر، سواء فى صورة صليبيين أو تجار أو جنود مرتزقة، وسرعان ما عبرت كراهية البيزنطيين الدفينة للاتين عن نفسها فى مذبحة دموية للاتين المستوطنين بالعاصمة عام ١١٨٢م ، والأهم من ذلك أن الحركة الصليبية ضخمت من هوة اللاتفاهم، وأكدت أوجه الخلاف ودعمت الشقاق الإيديولوجى بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى، وبدا قادتها وجنودها فى أعين المجتمع البيزنطى نوعا غريبا وهميا من البشر، حثالة يتكلمون لغة غير مفهومة، لا يتسمون بشىء سوى الجشع وسوء السلوك، ولديهم تيه بالنفس لا يحتمل، ومن ثم بدأ هذا المجتمع فى شحذ أسلحته، وأصبح حريصاً على تضامنه فى وجه زمرة معادية عُرفت باللاتين، نوع من الناس يختلف تماما عن الرومان الحقيقيين المتحدثين باللغة اليونانية.

ومن اليسير تماماً حصد وجهات نظر الطبقة المثقفة من المجتمع البيزنطى لإظهار المدى الذى وصل إليه النفور من اللاتين، وهو النفور الذى تجسد فى عزاء راح الشاعر البيزنطى ثيودور برودروموس يقدمه لأم الأميرة ثيودورا ابنة أندرونيقوس شقيق مانويل حينما زُفّت إلى هنرى دوق النمسا قائلاً: "لقد ضُحى بها قرباناً لوحش الغرب البرى"، كما راح نيقتاس الخونياتى يؤكد على حالة اللانسجام القائمة بين البيزنطيين واللاتين بقوله: "بيننا وبين اللاتين هوة سحيقة، فنحن أقطاب مستقلة، لا يجمعنا بهم أى فكر مشترك، فهم متكبرون متغطرسون، يستهويهم الاستهزاء بلطف واعتدال عاداتنا، لكننا ننظر إلى جهلهم وغطرستهم كتدفق المخاط الذى يجعل أنوفهم فى الهواء"، وفى الوقت نفسه عبر نيقتاس عن اشمئزازه من أولئك الأقزام، أنصاف المتحضرين، المتسمين بالغرور، والذين نعموا فى المنح الإمبراطورية فى وقت اضطر رعايا الإمبراطور الحقيقيين إلى الارتشاء من وظائفهم، وأنتقد الإمبراطور لأنه وضع هؤلاء البرابرة الجهلة فوق الرومان المثقفين فى الإدارة المحلية، ومنحهم إقطاعات البرونويا، فى وقت اضطر الشرفاء إلى العمل لديهم كخدم، كذلك راح كيناموس يصفهم بالفجور الأخلاقى قائلاً: "سوقيون غير موثوق فيهم، يتصفون بكافة الخصال البذيئة للمشتغلين بالبحر، ثرواتهم تزيد من طمعهم وعجرفتهم، يسيئون معاملة كثيرين من النبلاء ويعتدون عليهم، ومن بينهم أقارب الإمبراطور نفسه"، كما راح الشاعر البيزنطى يوحنا تزيتزس يعبر عن احتقاره لوجود رجال دين لاتين يدينون بالمذهب الكاثوليكى فى



مدن الإمبـراطورية بقوله: "لقد أصبح اللصوص والعـناصر الفاسـدة من كل سـلالة وأرض، أسـاقفة وقديسـين فى إمبراطوريتنا".

وإذا كان ذلك موقف الطبقة المثقفـة فى المجتمع البيزنطى، فإن شعب القسطنطينية بمخـتلف فئاته وطوائفه كان أكـثر تعصبا فى موقـفه العدائى من اللاتين، حيث اعـتبرهم حـثالة من البـشر، أشد مـا حز فى نفسـه رؤية ما يتمتعون به من امتيازات وما بحوزته من ثروات، وراح التجار والصناع، تحت وطأة المنافسة القاسية للتجار اللاتين، يعارضون العنصر اللاتينى وينتظرون بفارغ الصبر يوم خروجه من الإمبراطورية بلا عودة ، كما شعرت الطبقة البيروقراطية بالاستياء العميق من وجود جماعة ضغط لاتينى فى البلاط البيزنطـى امتلكت تقريبا أُذن الإمـبراطور، وتوجست خيفـة من كونها لن تستطيع ممـارسة نفوذها التقليدى لدى الإمبراطور، وهذا الاسـتياء عُبر عنه بقوة فى رسالة كتبهـا الأسقف البيزنطى جورج تورنيكوس George Tornikos رئيس أساقفة أفـسوس فى عام ١١٥٠م بعد ما فشل فى مـساعيه للحصول على وظيـفة لعمه فى البـلاط الإمبراطورى، حيث جاء فـيها: "لا أكاد أصدق أن مـحباً للهلينية والحريـة، يُدرج هللينياً مع برابرة، أو يُدرج رجلاً حراً مع أناس هم عـبيد بالفطرة، ولا أكاد أطيق صنفاً من النـاس فى علاقات طيبة مع البـرابرة فيفضلونهم على الهللينيـين، زاعمين أن الهللينى رغم كونه بطلاً ومحباً للموساى(ربات الفنون) وهرميس أقل الطرفين شأناً".

ويعد هذا هو أول استـخدام واضح لكلمة هللينى Hellene بدلاً من الاستخـدام التقليدى لكلمة رومانى Romaios لتعنى بيـزنطى، فما دلالة هذا الاسـتخدام؟ أهى محـاولة من جانب البيزنطيـين للتنصل من هويتهم كرومان؟ أم مـحاولة لإعادة تحديد هويتهم؟ وإذا كـان الأمر كذلك فما دافعهم إلى ذلك؟

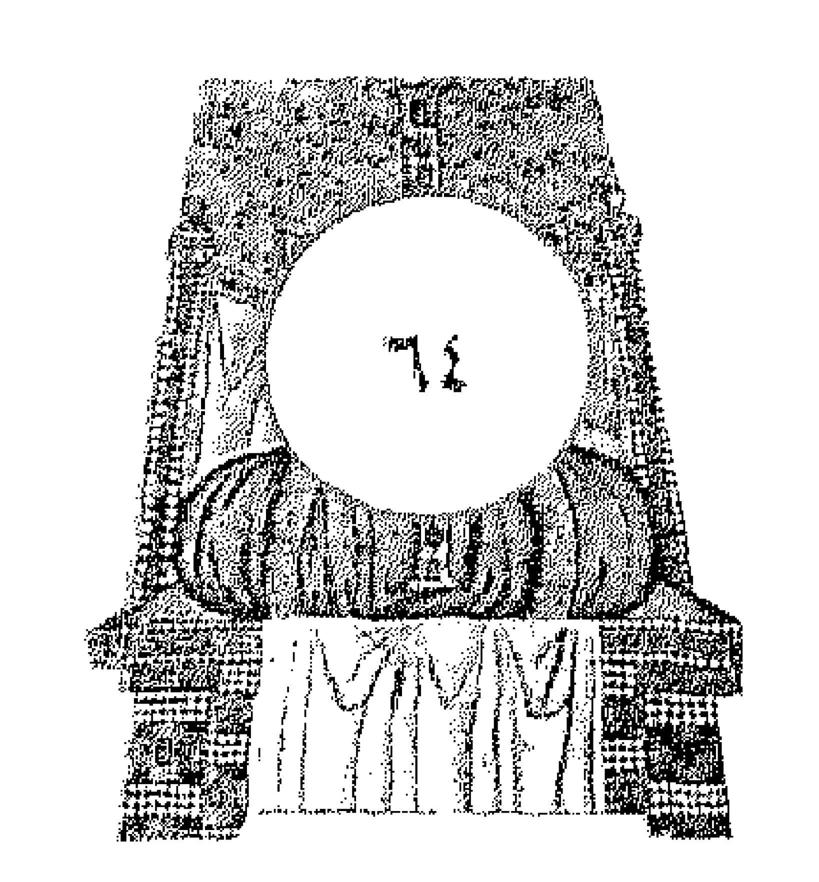
بداية ينبغى الإقرار بأن الحركة الصليبـية قد أضفت على تجمع سكان الغرب الأوروبى هوية موحدة، وأن انضواءهم تحت راية الصليب كان أمراً مروعـاً للشعب البيزنطى الذى بات لزاما عليه أن يحدد هويتـه فى مواجهة هذا المد اللاتينى، ولم يـكن الكتاب البيزنطيـون عند تسمية أنفـسهم هللينيين يتنصلون من هويـتهم كرومان، بل رغبـوا فى تمييز أنفســهم عن اللاتين الذين ادعوا أنهم أيضا رومان والتأكيد على أن ما يميز البيزنطيين عن غيرهم، ليس لأنهم روماناً فقط بل زادوا على ذلك بأن ثقافتهم هللينية وربما كـان هذا الاتجاه الجديد نتيجة طبيعية للاعتـقاد البيزنطى المتزايد بأن اللاتين رغم مشاركتـهم التعاليم المسيحية، ليـسوا حلفاء طبيعيين وإنما أعـداء تقليدين، شأنهم فى ذلك شـأن الشعـوب الوثنية، ولا يسـتحقـون حتى مكانة "الشـعب المقـرب" التى منحهـا لهم الإمبـراطور البيـزنطى قـسطنطين السابع فى القـرن العاشـر؛ ولذا راح يوحنا أبوكـاوكوس John

Apokaukos يشير إلى اللاتين فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة بقوله: "الوحوش والثعابين البرية التى تود أن تسحقنى، أنا الهللينى، بين أسنانها".

وأخيراً؛ لا شك فى أن لجوء أهل الفكر فى بيزنطة إلى تحديد هويتهم فى مواجهة تهديد المد اللاتينى، وحنينهم إلى أثينا القديمة وتفضيلهم اسم هللينى كان لتأكيد الهوة السحيقة لحالة اللا انسجام القائمة بين البيزنطيين واللاتين، كما أنه يعبر عن اتجاه ثقافى هام يعكس محاولة للتحرر من الافتتان بالتغلغل اللاتينى فى أوجه الحياة البيزنطية من جانب جماعة ذات نفوذ فى البلاط الإمبراطورى والكنيسة البيزنطية، كما أدى ثراء التجار اللاتين إلى عمق الفجوة بين الفقراء والأغنياء، وهو الأمر الذى عبر عنه أحد المؤرخين اللاتين وهو أودو الدويلى بقوله: أن الأثرياء حجبوا نور الشوارع فى العاصمة بمبانيهم الشاهقة تاركين الأماكن القذرة والمظلمة للفقراء، ولا شك فى أن ذلك قد أشعر الطبقة المثقفة بالقلق تجاه الخطر الذى يتهدد النظام الاجتماعى فى بيزنطة، فظهرت شكاوى الشاعر ثيودور برودروموس من الرجال الراكبين جيادهم والذين يجتازون شوارع العاصمة الرئيسية يوزعون الهدايا والأموال، فى وقت اضطر رجال ذو أصل نبيل وثقافة رفيعة إلى السير على الأقدام، وراح نيقتاس الخونياتى يُرجع جموح العاصمة وانحلالها إلى صفتها العالمية، والتشكيلة المتنوعة من التجار الذين يتصرفون بمنتهى الحماقة.

وعلى أية حال، يمكن القول بأن العداء الشعبى تجاه اللاتين كان يقوده الحزب المعارض للوجود اللاتينى فى البلاط الإمبراطورى والكنسية، فالعداء الشعبى كان موجوداً منذ بداية عهد مانويل، ولكنه اتخذ شكلاً أكثر تطرفاً بعد عام ١١٦٦م مع الجدل اللاهوتى حول طبيعة العلاقة بين الله والمسيح، حينما دعا مانويل إلى عقد مجمع كنسى حاول من خلاله الوصول إلى صيغة تقريبية بين وجهات نظر البيزنطيين واللاتين، معتمداً فى ذلك على توجيه اللاهوتى البيزى هوجو أتريانوس، حيث أثار هذا الأمر استياء رجال الكنسية البيزنطية فى مواجهة الإمبراطور، وفى الوقت نفسه كانت هناك معارضة داخل البلاط، قادها نقفوروس برينيوس Nicephorus Brennius وألكسيوس كونتو ستيفانوس Alexios Kontostephanos، ورغم أن مانويل نجح فى قمع هذه المعارضة واعتقال قائديها، إلا أن الاستياء من رعايته اللاتين ظل حتى نهاية عهده، ودلالة هذا الحدث تكمن فى أنه يشير إلى تكتل مشاعر رجال الكنيسة البيزنطية وجانب من رجال البلاط المعادين للاتين مع استياء شعب القسطنطينية، وإلى أن كراهية المجتمع البيزنطى الكامنة للأجانب Xenophobia أصبحت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر موجهة بصفة خاصة إلى اللاتين.





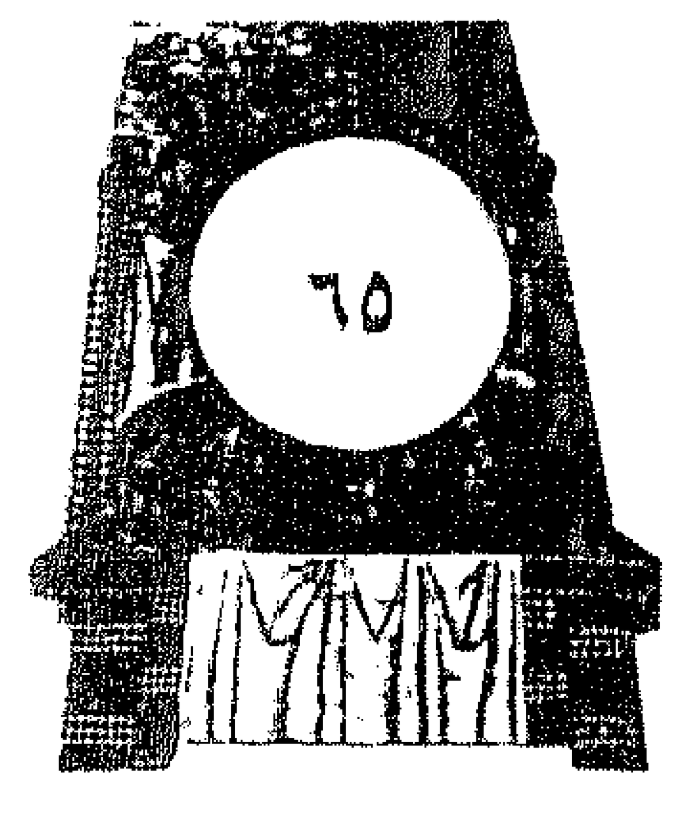


بيزنطة وحصاد الصليبيات الأليم

"أيتهـا المدينة، يا خـير المدائن، يا حـديث المسكونة، يا منار الأرض، يا حامية الكنائس، يا سيـدة الإيمان، يا قلعة العلم، يا مـلاذ كل الخير، لقد تجـرعت حتى الثمالة من كـأس غضب الله، ولقد حل بك أتون أبشع من ذاك الذى انصب لظاه قديما على المدائن الخمس".

بهذه الكلمات الموجعة والمثيرة للأسى راح المؤرخ البيزنطى نيقتاس الخونياتى ومعه البيزنطيون جميعا ينوحون مـدينتهم، حاضرة إمبراطوريتهم، القسطنطينية، بعد أن وثب عـليها صليبو الحملة الرابعة عام ١٢٠٤م، وداسوها بأقدامهم ليتحقق لهم بذلك هدفهم المنشود، وحلمهم الأثير الذى طالما تاقوا إليـه منذ اللحظات الأولى لقيـام مشروعـهم الصليبى "المقـدس"!!، لقد راح نيقـتاس والبيزنطيون يـهتفون ويصرخون يومهـا "آه بيزنطة"، يتوجعون لسقـوطها باسم المسيح والصليب، والأكثر دلالة أن نيقـتاس أعلن صراحة أنه كان يتمنى لو أن بيـزنطة وقعت فى يد المسلمين "الذين

مخطوطة فرنسية لانتصارات صلاح الدين الأيوبى فى الحروب الصليبية



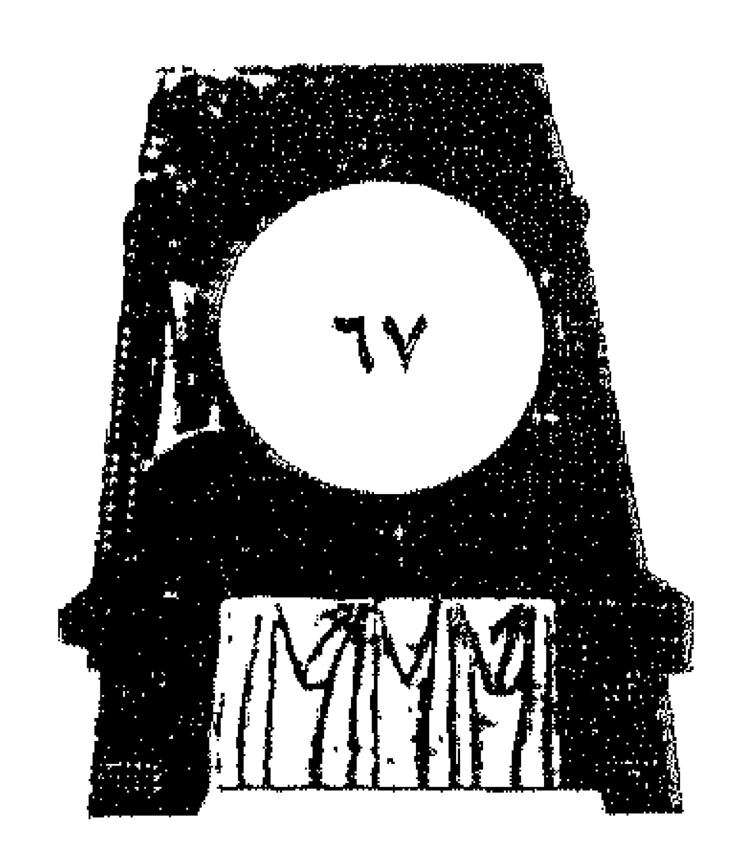
اتسموا بالتسامح والرحمة حين فتحوا بيت المقدس، ولم يفعلوا بها مثلما فعله هؤلاء المخلوقات الذين حملوا صليب المسيح على أكتافهم".

وكعادة الغرب الأوروبى دوما فى علاقته مع الإمبراطورية البيزنطية، راح يبرر حملته المقدسة هذه بأن بيزنطة وكنيستها قد حادت منذ زمن بعيد عن طريق الإيمان القويم، فما هى إلا كنيسة ضالة مهرطقة، وأتباعها لا يمكن اعتبارهم مسيحيين حقيقيين بل هم أعداء للمسيح والعذراء، فهم من خان قضية الصليب منذ بدايتها، وهم من راح يضع العراقيل والعقبات أمام تحقيق "جنود الرب لهدفهم «المقدس»، ولذلك راح مؤرخو الغرب وكتابه يسيرون على درب سار عليه من قبل الفرنسى أودو الدويلى الذى كتب فى منتصف القرن الثانى عشر بأنه لا يمكن اعتبار البيزنطيين فى عداد المسيحيين الحقيقيين، بل ينبغى قتلهم دون تأنيب ضمير، وعلى ذات النسق كتب هؤلاء أن الهجوم على بيزنطة هو تحقيق فعلى "لإرادة الرب" التى بشر بها أوروبان الثانى وخلفاؤه من البابوات حتى البابا المعاصر للحملة الرابعة "أنوسنت الثالث"، وأن الآثار المقدسة فيها يجب ألا تبقى فى أيدى شعبها المهرطق فقد آن الأوان لتخليص صليب الصلبوت من أيديهم، وإن من يساهم فى غزو القسطنطينية تغفر له خطاياه لأن البيزنطيين يضمرون الكراهية والحقد والغدر ضد "رحلة حجهم المقدسة"؛ ولذلك خاطب قائد الحملة الدوج البندقى هنرى داندولو الصليبيين بقوله: "أيها السادة إن لدينا الحق كل الحق فى الهجوم على القسطنطينية".

وتفيض المصادر اللاتينية بأحداث العنف والنهب التى قام بها الصليبيون داخل كنائس بيزنطة وكأن هذا عمل بطولى كبير حقق ما كانت الحركة الصليبية تصبو إليه فى تخليص الآثار المقدسة من أيدى "الهراطقة"، استولى الصليبيون على كل شىء جميل احتوته المدينة، ولم يتوقفوا زحفهم المدمر إلا للقتل وهتك الأعراض، ولم يفلت من أيديهم أحد، فقد اغتصبوا الراهبات فى عقر أديرتهن، ودخل الجند السكارى كنيسة آيا صوفيا وأجلسوا عاهرة على العرش البطريركى وجعلوها تغنى أغانى بذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام المذبح الكبير، وركلت الكتب المقدسة ووقعت تحت الأقدام، بينما استخدمت الأوانى الطاهرة أقداحا للخمر، وكان رجال الدين أشد "جند الرب" ضراوة ونهبا للكنائس والأديرة البيزنطية.

هكذا أنكشف زيف "جند الرب" وبهتان "الصليبيات" و"الحرب المقدسة"، وأثبت الغرب الأوروبى نفسه أن حركته تلك لم تكن سوى مشروع استعمارى استهدف احتلال أراضى المسلمين والمسيحيين فى الشرق على السواء، وأثبت البيزنطيون أنفسهم عن حقيقة هامة يغفلها ويتجاهلها الكثيرون فى الغرب الآن، وهى أن مسيحى الشرق بل وأكبر إمبراطورية مسيحية فى الشرق كانت تود لو احتلها المسلمون بدلا من هؤلاء البرابرة الهمجيون، وهى شهادة حق تؤكد تسامح ورحمة

المسلمين من جهة، وتثبت بربــرية ودموية تلك لحرب التى خرجت بدعاوى ومزاعم دينية زائفة، التى راح البــابا أنوسنت الثالث بطل البابوية الذى نجح أن يحقق فى عهده ما لم يحققه ســابقوه، يهنئ الصليبيين بذلك الفتح المبين الذى "حول الكنيسة البيزنطية المنشقة المنحرفـة إلى طريق السواء على شاكلة سيـدتهـا كنيســة روما"، كـما راح يكتب إلى رجـال الدين المشاركـين فى الصليبية يذكرهم بقول النبى دانيال عن حكمة الله وقدرته فى تبديل الأحوال والأزمان وإذلال من يشاء و إعــلاء من يشاء، وعبر البــابا عن بهجته الزائدة لأن نبــوءة دانيال قد تحقــقت أثناء اضطلاعــه بالبابوية، فــأذن الله بتحــطيم دولة البيــزنطيين وإنقــاذ كنيســتهم الضــالة من "سحب الجهالة والضلال التى خيمت عليهــا"، واختتم انوسنت الثالث رسالته طالبا من رجال الدين اللاتين المثابرة على تثــبيت المكاسب اللاتينية فى بيــزنطة بعد زوال الدولة الكريهة والكنــيسة المهرطقة.





- **إسحاق عبيد**، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩-١٢٠٤م، القاهرة، ١٩٧٠م.

- **اسمت غنيم** ، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، القاهرة، ١٩٨٢ .

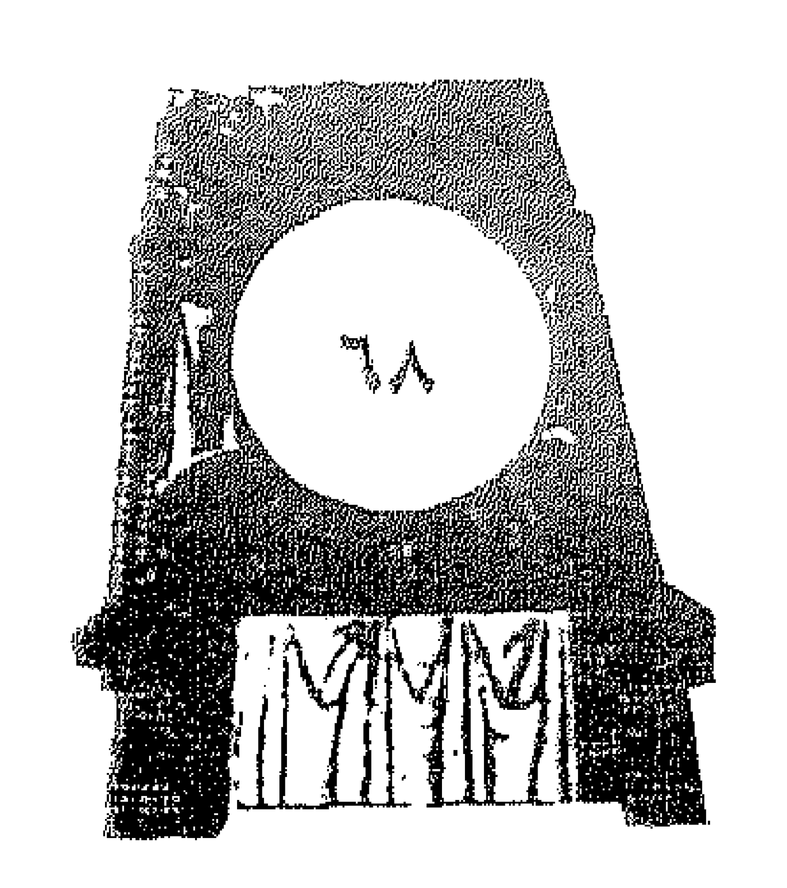
- **جوان هسى** ، "بيزنطة والحروب الصليبية ١٠٨١-١٢٠٤م"، منشور فى كتاب تاريخ الحروب الصليبية بإشراف كينيث سينون، ترجمة وتعليق عبد العزيز رمضان، تحرير سعيد البيشاوى ومحمد مؤنس عوض، رام الله، ٢٠٠٤م، ص٢٩٤-٣٣٢.

- **رأفت عبد الحميد** ، قضايا تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨م.

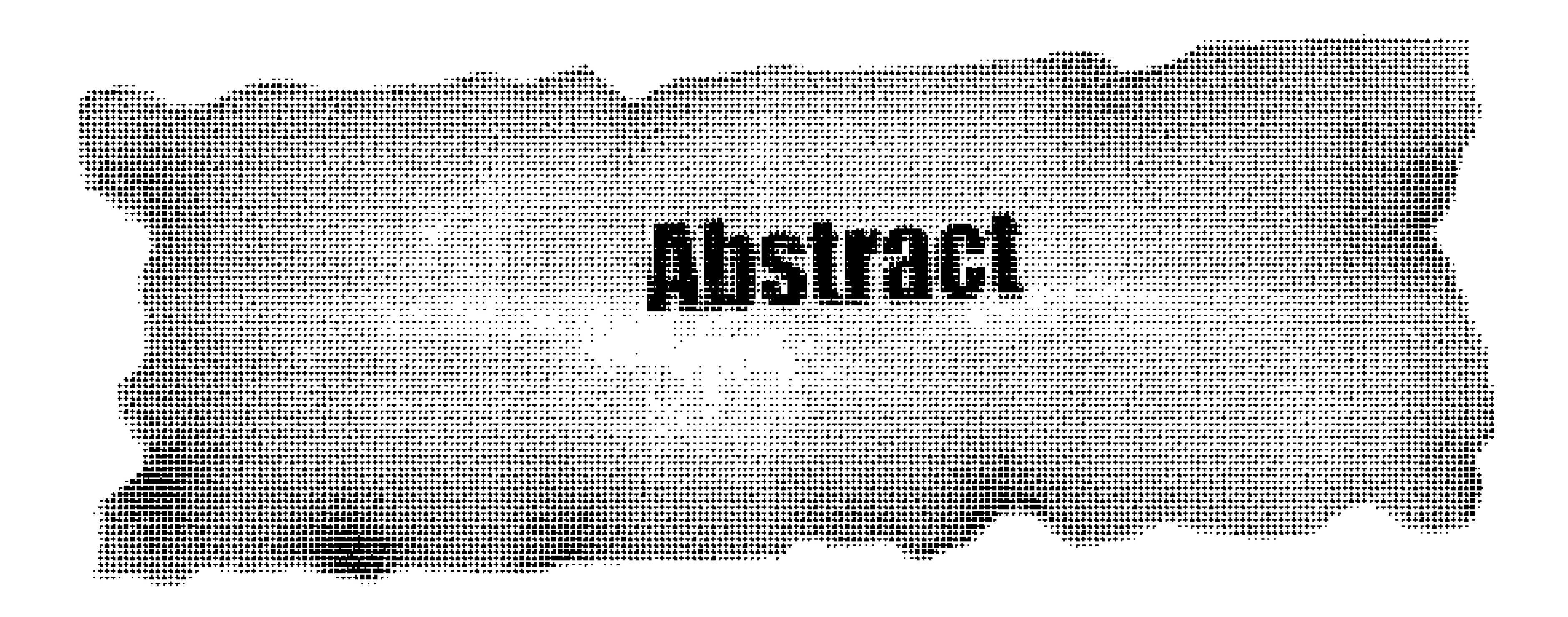
- **عادل زيتون** ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق الإسلامى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، دمشق، ١٩٨٠م.

- **عبد العزيز رمضان** ، العلاقات البيزنطية اللاتينية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس ١٠٤٣-١١٨٠م، ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م.

- **محمد مؤنس عوض** ، الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٠م


٦٨


المحتويات



This book reveals the fakeness of the "God's Soldiers", the falsehood of the Crusade and the holy war that the European West had launched at the beginning of the 11th century in Syria. They have claimed seeking the protection of the Eastern Christians from the Muslim persecution and saving the Christ's Holy Sepulchre from their hands.

This book highlights how the European West has proved without any doubt that all what they did was just a mere imperial project that aimed at occupying the lands of the Muslims and the Christians of the East. It also explains how the Byzantins themselves admitted that important truth that was ignored and dismissed by lots of people in the West.

It should be noted that only the Eastern Christians but also the biggest Christian Empire in the East in that era would have preferred to be occupied by the Muslims rather than those savage barbarians. This was a testimony of truth that confirms the forgiveness and the mercy of the Muslims from one side, and the savageness of those wars that claimed fake religious beliefs from the other side.

Dr. Abdel Aziz Mohamed

Encyclopaedia Introduction

History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

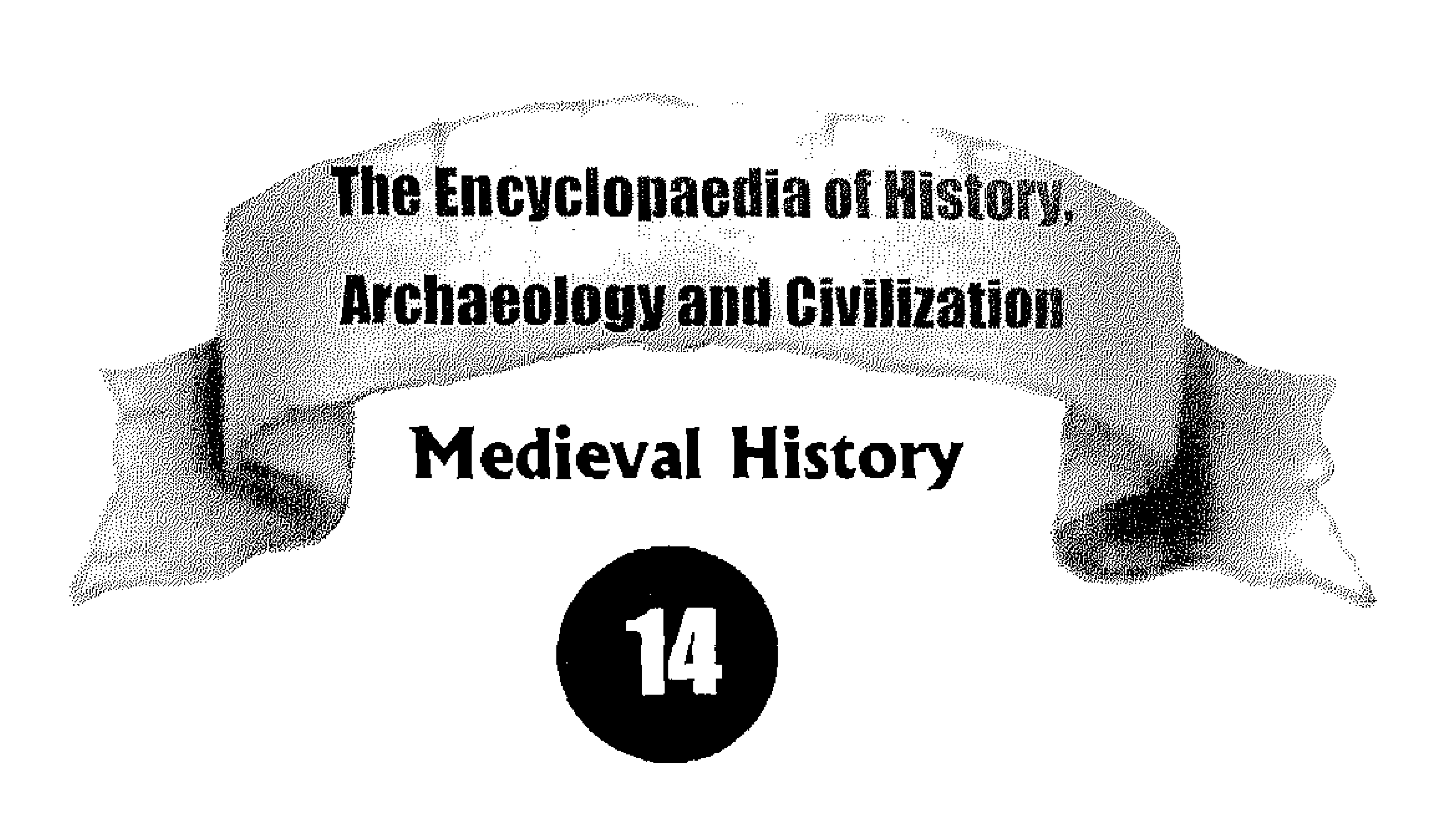
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

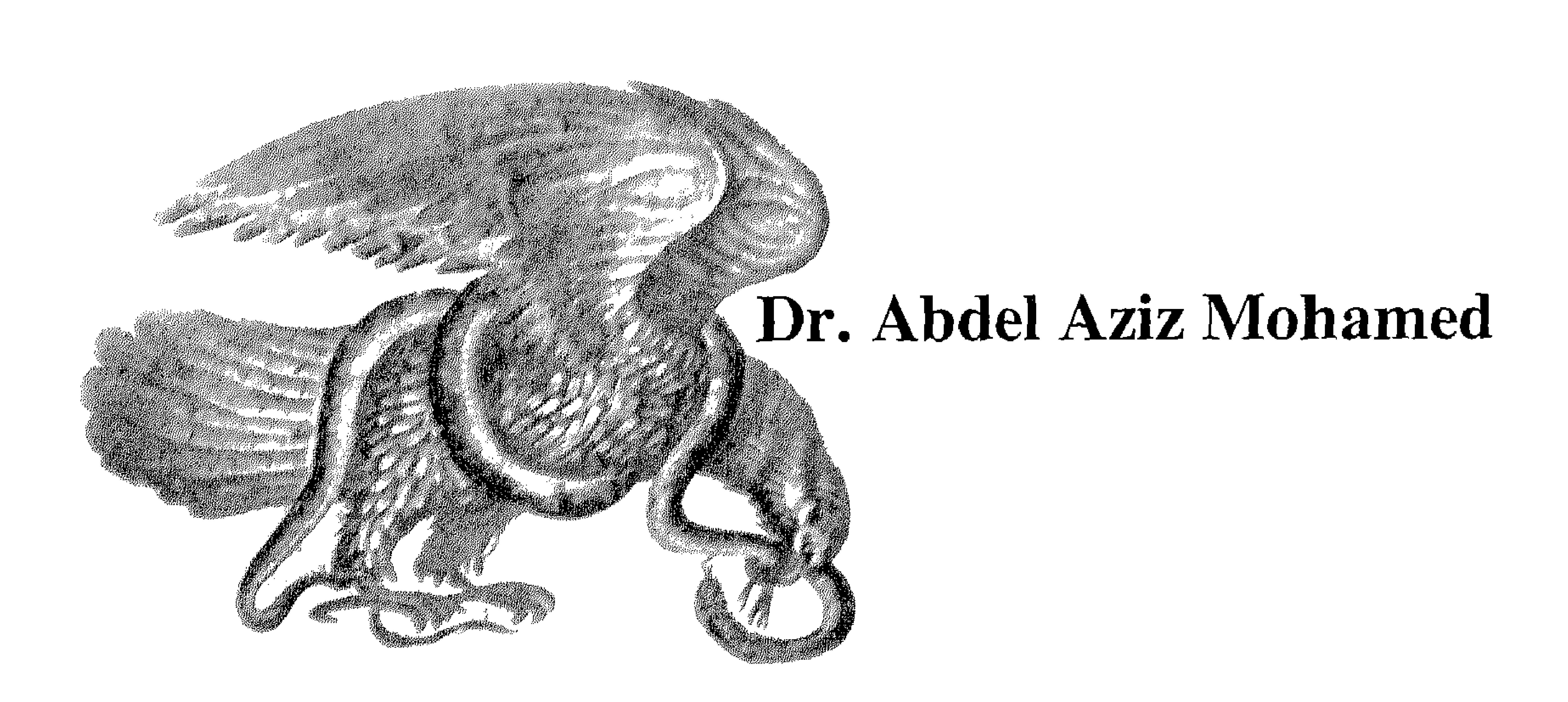
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



Byzantine State and the Crusade Wars



Dr. Abdel Aziz Mohamed

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Byzantine State and the Crusade Wars



Dr. Abdel Aziz Ramadan

